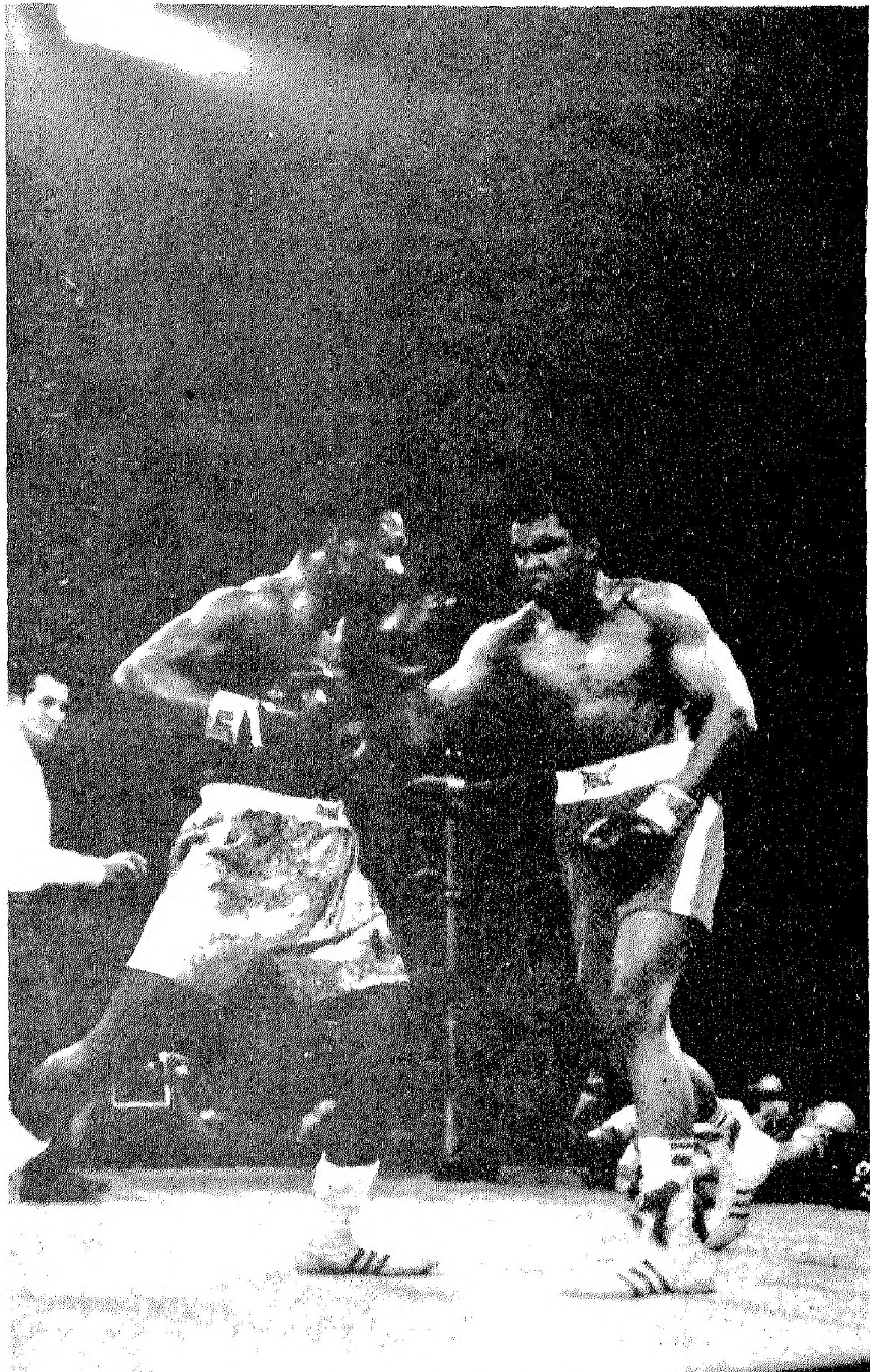
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصوّرة تبحث في التاريخ العربي
السنة الثالثة - العدد السادس والعشرون - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٠ - الموافق محرم - صفر ١٤٠١ هـ.



- لبنان التجربة الديموقراطية
- نجيب عازوري من خلال زمانه ومكانه
- بسمارك والمسألة الشرقية
- تاريخ انتشار اللغة العربية في افريقيا
- تاريخ نظم البريد في العالم
- تحرير عمان من البرتغاليين
- قلعة حزم

الماضي الذي سيأتي في عددنا المقبل



مباراة محمد علي
كلاي فريزر

عصر محمد علي في الملاكمة (١٩٦١ - ١٩٨٠)

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الثالثة - العدد السادس والعشرون - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٠ - الموافق محرم - صفر ١٤٠١هـ.

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ — المدير المسؤول : محمد مشموشي

الإنتاج : مطبعة المتوسط ش.م.ل. ● التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان :	٥ ل.ل.	سوريا :	٦ ل.س
العراق :	٨٠٠ فلس	ليبيا :	١ دينار
السعودية :	٨ ريال	الكويت :	٧٠٠ فلس
الاردن :	٥٠٠ فلس	أبوظبي :	٨ درهم
دبي :	٨ درهم	قطر :	٨ ريال
البحرين :	٨٠٠ فلس	عدن :	٨ شلنات
مسقط :	٨٠٠ بيزة	المغرب :	٦ درهم
فرنسا :	١٠ فرنكات	بريطانيا :	جنيه استرليني
		أميركا :	٣ دولارات

الإشتراكات

(بما فيها أجور البريد الجوي)

في لبنان : للأفراد	٧٥ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٠٠ ل.ل.
في الوطن العربي : للأفراد	١٠٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٢٥٠ ل.ل.
خارج الوطن العربي : للأفراد	١٥٠ ل.ل.
للمؤسسات والدوائر الحكومية	٣٠٠ ل.ل.

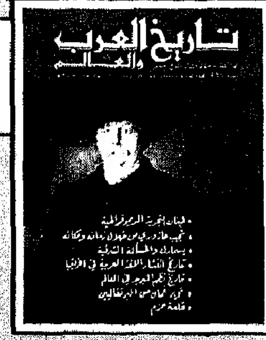
تدفع قيمة الاشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية أو بريدية .

ص.ب : ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل - شقة ١١ ● شارع السادات - تلفون : ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
PERIODICAL PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL. 800783
BEIRUT, LEBANON

Vol. 3. No. 26 Dec. 1980.
ANNUAL SUBSCRIPTION
$ 75 (INCLUDING $ 25 FOR
ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»



بسمارك
(راجع المقالة ص ٢٢)

في هذا العدد

● المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.



عُمان، قلعة حزم
(راجع المقالة ص ٦٢)

الموضوع — الصفحة

■ لبنان التجربة الديمقراطية (الحلقة الأولى)........... الرئيس د. سليم الحص ٣
■ نجيب عازوري من خلال زمانه ومكانه (الحلقة الأولى) .... د. زاهية قدورة ١١
■ بسمارك والمسألة الشرقية د. مروان بحيري ٢٢
نظرة نقدية.. ترجمة: وليد حمارنة •
■ وثائق من التاريخ: المانيا «مجلة الباحث» ١٩١١........................ جرجي يني ٢٩
■ بسمارك موحد المانيا.................................... د. محمد أمين فرشوخ ٣٥
■ كتاب د. إحسان عباس:
من الذي سرق النار.................................. تقديم: د. وداد القاضي ٤١
■ الاقطاع الاسلامي
اصوله وتطوره - دراسة مقارنة (الحلقة الثانية)........ د. ابراهيم علي طرخان ٤٨
■ حقائق ام نسج خيال: سورتسي... مولد جزيرة جديدة........... شذا عدرة ٥٩
■ الإمام ناصر بن مرشد اليعربي
وتحرير عمان من البرتغاليين.............................. أحمد يوسف عبيدلي ٦٢
■ تاريخ انتشار اللغة العربية
في افريقيا السوداء (الحلقة الأولى)............................ عمار هلال ٦٧
■ تاريخ نظم البريد في العالم.............................. قسم «التوثيق والأبحاث» ٧٧
■ كتب وردتنا: بحوث في مؤخرة القوات المسلحة .. ٨٧
للعميد الركن محمد خالد شيخ القصّابين..................... عرض: هاني خليل ٨٧
■ تاريخ الطوابع: الخليج العربي........................... ميشال اسطفان ٩٣

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص. ب ٥٩٠٥ في بيروت.
● المقالات والدراسات التي تنشَر لا تعبِّر بالضرورة عن آراء المجلة.
● المواد الواردة إلى المجلة لا تُرَدّ إذا لم تُنشَر.

لبنان التجربة الديمقراطية

محاضرة ألقيت في المركز الثقافي الاسلامي في بيروت بتاريخ ٢٠/١١/١٩٨٠.

الرئيس الدكتور سليم الحص

(الحلقة الأولى)

نظرة في التجربة:



عاش لبنان حقبة من الزمن تربو على الثلاثين سنة من عهد الاستقلال كان ابنائها يرفل في حياة من الحرية والانفتاح طبعت وجهه بطابع حضاري متميز في هذه المنطقة من العالم. فقد اعتمد منذ البداية نظاماً يرتكز على الممارسة الديمقراطية البرلمانية في اطار دستوري واضح المعالم. فخاض تجربته الغنيّة التي تخلّلها انتخابات نيابية دورية. وتعاقب على الحكم خلالها ستة رؤساء للجمهورية انتخبتهم المجالس النيابية. وقامت خلالها الحكومة تلو الحكومة لتشارك رؤساء الجمهورية في تولي السلطة الاجرائية وتؤدي الحساب عن أعمالها أمام الشعب وأمام ممثليه تحت قبة المجلس النيابي، فكان منها حتى اليوم ٥٢ وزارة.

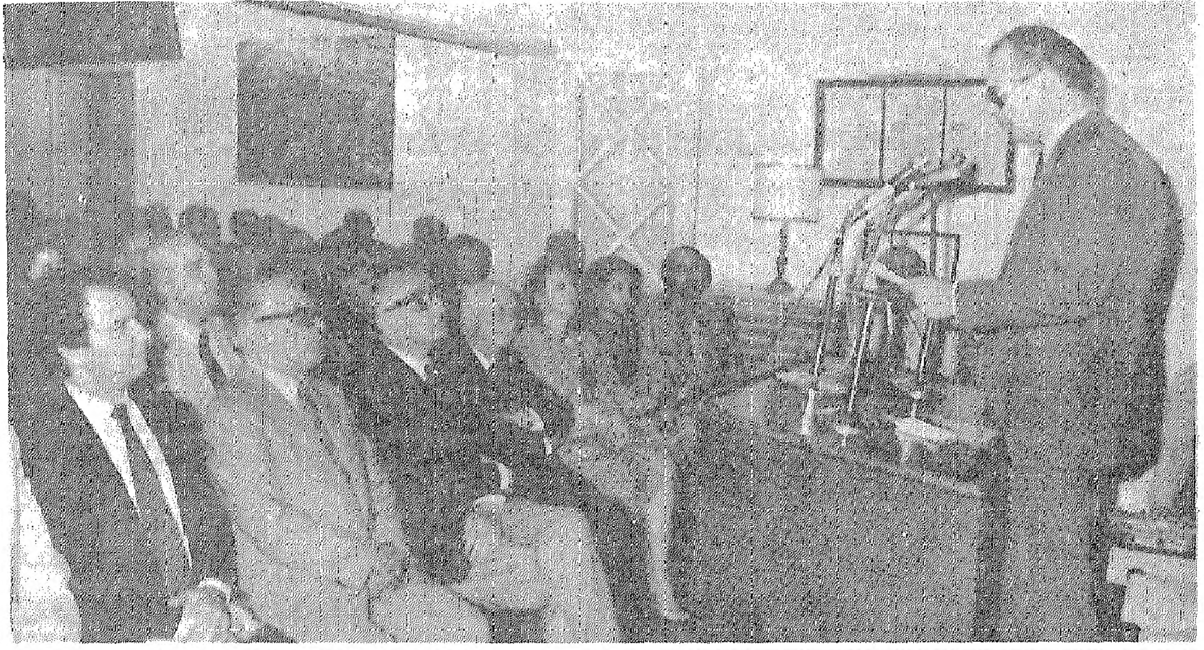
وشهد النظام، فيما تشهد الأنظمة الديمقراطية البرلمانية أينما كانت، حكماً ومعارضة في صراع دائم على ساحة الحوار الطليق المفتوح، يحتدم حيناً ويفتر أحياناً، ولكنه يبقى من حيث المبدأ على الأقل ملتزماً حدود التعامل السياسي الطبيعي الرصين. وواكب تطور النظام السياسي هذا، نظام اقتصادي تمحور على حرية النشاط الفردي والمبادرة الخاصة في اطار من الانعتاق والانفتاح خلا، أو كاد، من أية قيود تكبّل أو تعوق حركة التجارة والانتاج والاستثمار والمال. كذلك رافق سير ذاك النظام نمو نشاط اعلامي واسع فاعل، لحمته وسداه صحافة حرة ذات كلمة مدوية، لا قيد عليها ولا رقيب.

فلا غرو إذا اكتسب لبنان خلال تلك الحقبة صورة المعقل للحريات: حرية الفكر والمعتقد وحرية التعبير وحرية العمل، وفاز بصفة الملاذ لكل مكبوت أو مضطهد أو طريد أو مشرد.

الرئيس الدكتور سليم الحص
مولود عام ١٩٢٩ في بيروت
الدرجات العلمية: ب.ب.ع. ١٩٥٢ الجامعة الأميركية في بيروت
م.ع. ١٩٥٧ الجامعة الأميركية في بيروت
دكتوراه في الاقتصاد والتجارة ١٩٦١ جامعة انديانا في الولايات المتحدة الأميركية

الأعمال والمناصب التي شغلها:
- أستاذ في الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٥٥-١٩٦٧
- خبير مالي في الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية ١٩٦٤-١٩٦٦
- رئيس لجنة الرقابة على المصارف لدى مصرف لبنان المركزي ١٩٦٧-١٩٧٣
- رئيس مجلس الادارة المدير العام للمصرف الوطني للانماء الصناعي والسياحي ١٩٧٣-١٩٧٦
- رئيس وزراء لبنان من ٩ كانون الأول ١٩٧٦ حتى ٢٥ تشرين الأول ١٩٨٠

نشر له دراسات عدة في الاقتصاد اللبناني.



الرئيس الحص وجانب من الحضور اثناء إلقاء المحاضرة.

الممارسة في الميزان:

إلا أن هذه الصورة المشرقة لم تكن كلها اشراقاً، وقد اعترضت مسار النظام عثرات وانتكاسات. لم تكن الانتخابات النيابية كلها نزيهة عادلة. فهناك انتخابات ٢٥ أيار ١٩٤٧ وما خالطها من شوائب وما أثير حولها من مآخذ. وهناك انتخابات عام ١٩٥٧ التي تمخضت عن نتائج كان من شأنها تعزيز أسباب التأزم الذي أفضى إلى احداث العام ١٩٥٨. ولكم اعتورت عمليات الانتخاب في غير دورة انتخابية شوائب في هذه المنطقة أو تلك من جراء ممارسات شاذة.

وقد تخللت التجربة أزمات وانتكاسات كثيرة، بعضها لم يكن يخلو من الشدة وبعضها بلغ في حدته مبلغ العنف. منها الأزمة التي انتهت باستقالة رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري عام ١٩٥٢، ومنها احداث العام ١٩٥٨ الدامية، وأزمة العام ١٩٦٩ التي سجلت أطول أزمة وزارية منذ الاستقلال، وأزمة ١٩٧٣ التي أعقبت غدر اسرائيل بثلاثة من زعماء المقاومة الفلسطينية في بيروت، ثم المحنة الكبرى التي انطلقت شرارتها مع تفجر الأحداث الدامية عام ١٩٧٥ والتي ما زلنا نقاسي من ذيولها ومضاعفاتها وتعقيداتها.

إلى كل ذلك لم يكن ذلك الظاهر المشرق ينم عن الحقيقة الكاملة. فالحال لم تكن كلها صحة وكلها عافية. فتجربة اللبناني مع الحرية والازدهار كانت إلى حد ما تجربة متعثرة. أما الحرية فكثيراً ما كان اللبناني يخطىء ممارستها، أو يسيء، في شتّى المجالات: في السياسة والاقتصاد والصحافة وغيرها. والازدهار، تحت أديمه الأخاذ، كان يخفي مكامن وهنه: فوارق اجتماعية، مناطق محرومة، حزام بؤس حول العاصمة، نزوح من الريف إلى المدن، هجرة أدمغة إلى الخارج، وما إلى ذلك.

إذا كان لنا أن نحكم على التجربة من نتائجها، فالنتائج تشمل كل ما أسلفنا ذكره من عثرات وسلبيات، ولكن ذروة تلك النتائج وأعمقها أثراً هي ما نشهد اليوم من أزمة مستحكمة باتت تنعكس تمزقاً في هذا المجتمع وتصدعاً في صفوف هذا الشعب ومخاطر تتهدد وحدة هذا الوطن ومخاوف تقض مضجع المواطن على أمنه وسلامته ومصيره ومعاناة انسانية حادة تلف حياة الكثرة من ابناء هذا البلد وأخيراً لا آخراً تعطل مسالك الممارسة الديمقراطية نفسها إلى حد بعيد.

إذا كانت التجربة الديمقراطية تقاس بنتائجها، ولا تعرف من الناحية العملية مقياساً أصدق انباءاً، فيمكننا القول أن التجربة الديمقراطية في لبنان كانت فاشلة. ما كنا لنسمح لأنفسنا بالحديث عن فشل التجربة لو لم تكن المحنة الحالية بما ترتب عليها من آثار عميقة حدت بالمواطن إلى مراجعة الضمير واعادة التفكير في ما كان يفترض أنه من المسلمات أو البديهات أو المعطيات. أما عثرات الماضي فما كانت لتبرز أكثر من الكلام عن هنات أو ثغرات في النظام يمكن أن تكون قد تسببت في تعثر مساره.

لولا الأزمة الراهنة بعمق ابعادها لقلنا عن عثرات الماضي أنها دلائل عافية في مرحلة مخاض سياسي لا بد أن يجتازها شعب فتي وهو يخطو خطواته الاولى على طريق الانعتاق والاكتمال والنمو بعد تحرره من ربقة الانتداب ونير الاحتلال، ولقلنا مع من كان يقول قبل اندلاع الأزمة أن ايجابيات النظام المعتمد للممارسة السياسية على هناته كانت ترجح على سلبياته. ولكن أزمة ماحقه كالتي عصفت بنا منذ العام ١٩٧٥ لا تترك مجالاً للحكم بغير الفشل على نظام عجز عن استباقها أو تداركها ثم عجز بعد انفجارها عن احتوائها في اطار اللعبة الديمقراطية التي يقوم عليها.

هذا الحكم الفج على التجربة قد يصدم كل من كان يباهي بما تميز به لبنان من حرية وانعتاق وديمقراطية وانفتاح. ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها هي هذا الواقع المرير الذي نعيش اليوم والذي تـوّج سنوات طويلة من الممارسة السياسية طبقاً لنظام معين.

لو كانت التجربة ناجحة، أما كان من المفروض أن تؤدي اللعبة الديمقراطية دور صمام الأمان الذي يحول دون وقوع الانفجار فالانهيار؟ أما كان من المفروض أن تتيح الممارسة الديمقراطية تفاعلاً متواصلاً بين الآراء والمواقف والمصالح بحيث تنهي الخلافات على مسرح الحوار الديمقراطي وفي اطار المؤسسات الدستورية قبل أن تتحول إلى نزاع سافر على مستوى القواعد الشعبية كان من مفاعيله تقويض دعائم الأمن والسلام والاستقرار في المجتمع واحداث شروخ بين فئات الشعب تهدد وحدة الوطن؟ أما كان من الطبيعي أن يضمن العمل بالنظام الديمقراطي احتواء الخلافات والانقسامات بحيث لا تخرج عن دائرة المعالجة الهادئة ضمن الاصول الديمقراطية من خلال الحوار الايجابي البناء؟ أو ليس خروج النزاع إلى ساحة الاحتكام إلى منطق العنف والبطش والسلاح دليلاً ساطعاً على عجز التجربة الديمقراطية كما موريست عن التجاوب مع تطورات الوضع ومستجداته والاستجابة إلى مقتضياته؟ فبقدر ما نعتبر أن التجربة الديمقراطية وسيلة لصون القيم الوطنية والأخلاقية والاجتماعية والانسانية التي نؤمن بها، بذلك القدر، أمام مشهد أسمى القيم تبدد وتنتهك وتداس حولنا وتحت أبصارنا، فاننا نسوّغ لأنفسنا القول بفشل التجربة الديمقراطية كما موريست في لبنان.

أي ديمقراطية هي تلك التي آلت إلى الحال الذي نتخبط فيه اليوم: في ظل سطوة السلاح والمسلحين، وطغيان لغة العنف على كل ما عداها، أين حرية التفكير والمعتقد والتعبير التي تترادف مع جوهر أي نظام ديمقراطي وأي ممارسة ديمقراطية؟ لسان المواطن معقود وقلم الصحافي مقيّد وصوت الحر مخنوق ورأي الأعزل مكبوت. وإذا كان ظاهر الأمر غير هذا، كما قد يتراءى لبعض غلاة المكابرين، فعليهم بقافلة شهداء السياسة والصحافة ينطقون بالحقيقة، وعليهم برصد ما حل بالشرعية ومؤسساتها بعد أن فرضت التطورات انحسار ظلها وانكفاء سلطانها أمام مد التحدي للشرعية وسطوة القوى غير الشرعية. في كل مكان مشاهد نابية وأصوات نشاز: قوات لا نظامية تحل محل القوات النظامية، صحف غير مجازة تزاحم الصحف المجازة، اذاعات غير شرعية تضارب الاذاعة الرسمية.

أسباب التعثر:

كيف نفسر فشل التجربة الديمقراطية في لبنان؟ هل نقول أن لبنان لم يكن مهيأ للممارسة الديمقراطية الصحيحة؟ أم هل نقول أن النظام الديمقراطي الذي فُصّل للبنان كان لزمن معين،



من اليمين:
بترو طراد، عبد الله اليافي، رياض الصلح، الشيخ بشارة، شكري القوتلي، حبيب ابو شهلا، هنري فرعون.

بُلي ولم يجدد، وكبر الجسم اللبناني عليه مع الزمن فتمزق؟ أم هل نقول أن شروط اللعبة الديمقراطية التي تبناها لبنان قد تعطلت قسراً بتدخل عوامل خارجية لم تكن في الحسبان عندما وضعت تلك الشروط؟

لعل الحقيقة هي كل ذلك في آن.

إلى حد ما لم يكن لبنان بالفعل مهيأ للديمقراطية الصحيحة. كيف تكون ممارسة ديمقراطية في مناخ غير ديمقراطي. ولكي نكون أكثر دقة نقول: كيف يمكن تحقيق ممارسة سياسية ديمقراطية كالحرية لا تتجزأ. فعند مباشرة الممارسة الديمقراطية مع انبلاج عهد الاستقلال كان الوضع الاجتماعي مثقلاً في عدد من المناطق بقدر لا يستهان به من الجهل وهيمنة الروح العشائرية وتدني مستوى دخل الفرد. فلا غرابة في ظل مثل هذه الأجواء أن الشعب لم يحسن في بعض المناطق اختيار ممثليه، أو إنه لم يستطع عملياً ممارسة حقه في اختيار ممثليه بحرية تامة فسار في ركاب زعامات تقليدية موروثة دون سؤال، أو أذعن لضغوط مَنْ بدا له أنه كان يتحكم بمفاتيح الحول والقوة من خلال علاقته بالسلطة، أو انساق دون ارادة وراء من كان يتراءى له أنه من أولياء نعمته. أو اضطر إلى التدليل على صوته بين المرشحين ليعطيه لأعلى العارضين ثمناً. ومع بعض التحسن الذي طرأ على الأحوال في مختلف المناطق منذ الاستقلال، فان المناطق التي كانت ترزح تحت كابوس الجهل والعشائرية والبؤس لم تبرأ تماماً من أمراضها الاجتماعية والاقتصادية. وبقيت الممارسة الديمقراطية محدودة الاطار فيها ومقيدة إلى حد بعيد بالولاءات الشخصية. فلا عجب والحال هذه، وبعد سبع وثلاثين سنة من الاستقلال أن يكون بين أكثر نجوم السياسة تألقا اليوم اولئك الذين كانوا من نجومها يوم الاستقلال، أو هم ابناء اولئك أو من ذويهم.

من المسلّم به أن الديمقراطية نظام لممارسة لا تنطوي فقط على مفهوم سياسي وإنما



..ترو طراد في الوسط مع الشيخ بشارة الخوري محاطين بالزعين عبد الحميد كرامي والجنرال سبيرس ومن اليسار حبيب أبو شهلا وناظم عكاري. (الصور من: اصحاب الفخامة رؤساء لبنان، وليد عوض - الأهلية للنشر ٧٧).

أيضـاً على مفـاهيم اجتماعيـة واقتصـاديـة، فلا حرية سياسية وهي جوهر الديمقراطية. من غير حرية اجتماعية واقتصادية. وهذه الحرية تفترض حداً محسـوساً من الـوعي والعدالـة والمساواة وتكافؤ الفرص.

وربما أيضاً لم يكن القالب الذي صيغ للبنان هو الأصلح له. فقد بني كما يبدو لنا على قواعد انعكس فيها التمايز الطائفي والعشائري والاقليمي وانطمست فيهـا مسـالـك التطـور التلقائي المنتظم وطغت عليها معالم التيّبس. فاذا بالأحاسيس الطـائفية تـزداد حدة مـع الزمن والفجـوات الطبقيـة تـزداد عمقـاً والفـوارق الاقتصادية تزداد اتساعا والعوامل العشائرية والاقليمية تزداد سطوة.

وربما كان ثوب الديمقراطية الذي فصل للبنان صنع بـالفعل لـمرحلة الاستقـلال، ومع الزمن بُلي ولم يجدد، وكبر الجسم اللبناني عليه فتمزق. فالنظام ليس صنماً للعبادة حتى يحاط بحـرص متزمّت عـلى حمايتـه من أي تغيـير أو تطوير. والنظام في نهاية التحليل ليس هدفاً في حد ذاته وإنما وسيلة لأهداف أسمى تتلازم مـع رفـاه الشعب ومصـالحـه ولا يبقى إلا بمرضاته، فمن الطبيعي أن يتغير النظام ويتطور مع تبدل المعطيات والحاجات والتطلعات. مَنْ يدري، ربما لم يكن ذلـك الثوب هـو الأصلح للزمن الذي أعتمد فيه حتى من منظار الذين اعتمـدوه، ولكن الصـدارة في سلم أولـويـات الاعتبارات الوطنية لم تكن له وإنما كان مطلب الاستقلال مقدماً عليه. فولد ذلك النظام آنذاك لا نتيجة لمواجهة مسألـة الديمقـراطية وإنمـا نتيجة القفز فوقها. ويمكن أن يستشف ذلك من بيان الوزارة الاولى في عهد الاستقلال عنـدما ندّد بالطائفية ودعا إلى العمل على الغائها في أسرع ما يمكن.

وأخيـراً، ربما كـانت شروط اللعبـة قد عطلتها عوامل طارئـة لم تكن مرتقبـة عندمـا صيغت تلـك الشروط. فكمـا الأعصـار يغـرق سفينة، وكما الزلزال يدفن مدينة، فقد هبت على

الواقع اللبناني عواطف زعـزعت أركانـه. أما مصدر تلك العواصف فأزمة الشرق الأوسط بكل أبعـادها ومنعكسـاتهـا وتطـوراتهـا وذيـولهـا. وتتداخل في أزمة الشرق الأوسط قضايا تتعدى حجم لبنان وحدود امكاناته وحيّز تحكمه بقدره. وفي مقدمها قضية فلسطين وقضية النفط. وشأن لبنان في هذا كشأن كثير من البلدان الاخرى في محيطه. وقد قضت التطـورات التي شهدتهـا منطقة الشرق الأوسط منذ حرب ١٩٦٧ بالقاء العبء الأكبر من اعباء قضية المنطقة على كاهل لبنان، مما لم يكن النظام اللبناني معداً لهضمه. قد يكون هذا صحيحا، مع ذلك فاننا إذ نرى فيه بعض المعذرة فإننا في الوقت ذاته نرى فيه دليلاً آخر على عجز النظام عن التجاوب مع مقتضيات التغير الذي أصاب الواقع في لبنان ومحيطه. نحن نعلم أن الشعب، أي شعب، إذا تعرض لحرب خارجية وقف في وجه المخاطر وقفة رجل واحد. فما بال اللبنانيين يتفرقون شيعا وأفرقاء عندما يتعرضون للخطر من جراء أزمة الشرق الأوسط وتطوراتها؟ لماذا لم يقفوا وقفـة رجل واحد في مواجهـة الخطر الـداهم؟ أليس هذا دليلاً على عجز النظام عن احتواء المستجدات في اطار الممارسة الديمقراطية بشكل يحفظ للشعب وحـدته وبـالتالي صـلابة جبهتـه في الصمود والمواجهة؟ بالطبع لم يكن بالامكان عزل لبنان كليـاً عـن تطـورات أزمـة الشـرق الأوسط ومضـاعفاتهـا. فلبنان جـزء من هذه المنطقـة وقضية المنطقة قضيته كما هي قضية كل بلد من بلدان المنطقة. ولكن الواقع أن التناقضات والانقسامات الداخلية في لبنان، والتي لم تؤمن اللعبة الديمقراطية المعالجة الناجعة لهـا، هي التي عبـرت من خلالهـا عوامـل التفجير من الخارج وأتاحت لأيدي الشر والتآمر تحويـل لبنان إلى ساحة اقتتال بين ابناء الوطن الواحد.

من أهم أسباب تعثر النظام الديمقراطي، كمـا هو مطبق في لبنـان، الطائفيـة ومن أهم المشاكل التي أفرزها مسألة المشاركة في الحكم. قـد لا تكون الطـائفية السيـاسية هي السبب الوحيد لتعثر التجربة الديمقراطية، وقد يكون من أسبابه الاخرى، كما أسلفنا، ضعف أسباب الـديمقـراطيـة الاجتمـاعيـة والـديمقـراطيـة الاقتصـادية. ولكن في حـديثنا عن التجـربـة الـديمقراطيـة في السيـاسـة تبقى الطـائفيـة السياسية هي المظهر المرشح للتحليل والتشريح. ومن المحتم أن تكـون معالجتهـا هي الأكثـر تعقيداً لحساسيتها وابعادها السياسية وموقعها البارز بين المتغيرات في أي معادلة للحل الشامل للقضية اللبنانية.

ولا شك أن للطائفية السياسية افرازات سلبية لا تحصى، ولكن ربما كان أبرزها مسألة المشاركة في الحكم.

الطائفية السياسية:

لا نغـالي إذا قلنا أن مـوطن الـداء في النظام اللبناني هـو الطائفيـة السيـاسيـة، تلك الظاهرة التي تحدرت من صيغة ١٩٤٣ واقترنت بها. وتتجسد الطائفية السياسية في عهد غير مكتوب بتوزيع الرئاسات الثلاث على الطوائف الثلاث الكبرى، إذ وقفت رئاسة الجمهورية على الطائفة المارونية، ورئاسة المجلس النيابي على الطائفة الشيعية ورئاسة الوزراء على الطائفة السنية، وكذلك في قاعـدة طائفيـة نص عليها قانون الانتخاب منذ ما قبل الاستقلال وقضت بمراعاة نسبة ٦ إلى ٥ في التمثيل النيابي بين الطوائف المسيحية والطوائف الاسلامية.

مع أن الطائفية السيـاسيـة، بمظاهـرها الآنفة الذكر، تحدرت، كمـا يمكن القول، من صيغة ١٩٤٣ (الميثاق الوطني)، إلا أنها لم تكن من صلبها حسبما يتراءى لنا. وبعض اللبس، أو بـالأحرى الكثـير من اللبس، الذي أحـاط بتطبيق الميثاق الوطني ناجم عن الغموض في تعريف مفهوم الميثاق الوطني أو في الاختلاف على تعريف مفهومه. ومرد ذلك إلى حد بعيد، يعـود بـلا ريب إلى أن ذلـك الميثـاق لم يكن مكتوباً، وإنما كان تسوية اتخذت شكل التفاهم أو التـراضي أو التسليم بواقـع بين قـادة تلك المرحلة الذين التقوا على مطلب مرحلي هو انجاز استقلال لبنان. كان هذا المطلب حيوياً وخطيراً في حينه بحيث نظر إليه بطبيعة الحال على أنه هدف مقدم على كل ما عداه من أهداف أبعد تتعلق ببناء الدولة والوطن والمواطن. وقد قيل أن اللبنانيين حققوا عام ١٩٤٣ استقلال الدولة

ولم يوفقوا منذ ذلك الحين في بناء دولة الاستقلال.

إن صيغة ١٩٤٣ في أضيق مفهوم عرفت به كانت مترادفة مع سلبيتين توافق عليهما رجال ذلك العهد هما: تخلي المسلمين عن المطالبة بالانضمام إلى سوريا وتخلي المسيحيين عن الحماية الغربية. وكانت محطة السلبيتين في ميثاق ١٩٤٣ في مفهومه البسيط ايجابية تتمثل في الالتزام بلبنان وطناً عربياً سيداً مستقلاً حراً، كما جاء في البيان الوزاري لأول حكومة في عهد الاستقلال برئاسة المغفور له رياض الصلح.

مع الزمن حمّل الميثاق الوطني أكثر مما انطوى عليه المضمون البسيط الذي كثيراً ما ترادف معه في الأذهان، فعزيت إليه اصول الطائفية السياسية كما عرفت ومورست منذ الاستقلال، أي بأوجهها الآنفة الذكر من توزيع محدد للرئاسات الثلاث ولقاعد التمثيل النيابي وبين الوظائف. فهل كانت الطائفية السياسية بمظاهرها هذه، من صلب ميثاق ١٩٤٣ ومترادفة معه أم إنها كانت مظاهر عرضية مرحلية كان الميثاق في الواقع منها براءاً. إن مناقشة هذه المسألة لا بد أن تجرنا إلى جدلية لا طائل منها. حسبنا هنا ابداء ملاحظتين في هذا الشأن:

أولاً، إذا كان لنا في البيان الوزاري لأول حكومة في عهد الاستقلال قرينة على مكنون الميثاق الوطني، فان ما جاء فيه ينم عن رفض رجال الاستقلال، صانعي الميثاق، للطائفية مبدئياً. وما كان تسليمهم بها إلا بصورة موقتة. وهذا ما ورد حرفياً في البيان حول هذا الموضوع:

«ومن اسس الاصلاح التي تقتضيها مصلحة لبنان العليا معالجة الطائفية والقضاء على مساوئها. فان هذه القاعدة تقيد التقدم الوطني من جهة وسمعة لبنان من جهة اخرى، فضلاً عن انها تسمم روح العلاقات بين الجماعات الروحية المتعددة التي يتألف منها الشعب اللبناني. وقد شهدنا كيف أن الطائفية كانت في معظم الأحيان أداة لكفالة المنافع الخاصة كما كانت اداة لايهان الحياة الوطنية في لبنان ايهاناً يستفيد منه الأغيار ونحن واثقون إنه متى غمر الشعب الشعور الوطني الذي يترعرع في ظل الاستقلال ونظام الحكم الشعبي يقبل بطمأنينة على الغاء النظام الطائفي المضعف للوطن».

«إن الساعة التي يمكن فيها الغاء الطائفية هي ساعة يقظة وطنية شاملة مباركة في تاريخ لبنان. وسنسعى لكي تكون هذه الساعة قريبة باذن الله. ومن الطبيعي أن تحقيق ذلك يحتاج إلى تمهيد واعداد في مختلف النواحي، وسنعمل جميعاً بالتعاون، تمهيداً أو اعداداً حتى لا تبقى نفس إلا وتطمئن كل الاطمئنان إلى تحقيق هذا الاصلاح القومي الخطير».

ثم إن المادة ٩٥ من الدستور اللبناني تثبت الصفة الموقتة للالتزام الطائفي بصراحة ووضوح كليين إذ نصت على ما يلي:

«بصورة موقتة والتماساً للعدل والوفاق تمثل الطوائف بصورة عادلة في الوظائف العامة وبتشكيل الوزارة دون أن يؤول ذلك إلى الأضرار بمصلحة الدولة».

ثانياً، مهما كانت النظرية التي قد يؤخذ بها بالنسبة لارتباط أو عدم ارتباط الممارسة الطائفية بميثاق ١٩٤٣، فمما لا جدال فيه أن الطائفية، وبصورة خاصة الطائفية السياسية، أصبحت مع الزمن بعد الاستقلال مكمن الداء في لبنان الدولة ولبنان الوطن. فلو فرضنا جدلاً إنها كانت من صلب صيغة ١٩٤٣ فقد أصبح لزاماً تعديل تلك الصيغة لتحريرها من تلك الشائبة، وإن لم تكن من صلب صيغة ١٩٤٣ فلا بد على أي حال من التخلي عن تلك الممارسة ضناً بمصلحة، إن لم نقل بمقومات، لبنان الدولة ولبنان الوطن.

لا تنقصنا الحجج فيما لو انبرينا للتنديد بالطائفية في لبنان وتفنيد مساوئها، وخصوصاً من حيث انعكاساتها السلبية على الصعد الوطنية والسياسة والاجتماعية والادارية والانمائية. ولا اعتقد إن في لبنان مَنْ يتغنى بمحاسن الطائفية كمبدأ أو يشيد بفضائلها. حتى ولا غلاة الطائفيين في لبنان، فان دفاعهم عن الطائفية لم يكن يوما تمجيداً لمبدأ التمييز الطائفي في السياسة أو الادارة أو الاقتصاد

أو في خلاف ذلك من المجالات. وإنما كان دفاعاً عن نظام أو ممارسة بناء على ما يفرضه واقع طائفي موروث أو ما تمليه مخاوف أو هواجس أو حساسيات طائفية تتصل بالمستقبل والمصير. إذن لا حاجة بنا إلى الاسترسال في شجب الطائفية وانعكاساتها من حيث المبدأ.

يهمنا على أي حال التركيز على حقيقة هامة تتعلق بالواقع اللبناني، وهي أن نظام لبنان وكيانه توءمان. وليس هذا مجرد شعار نطرحه. فنظام لبنان هو الذي أعطى لبنان ذلك الوجه المميز، وحباه امكانية الاضطلاع بدور فاعل ورسالة خلاقة ضمن الاسرة العربية وفي العالم. وعطاء لبنان أو ما يمنّى به من عطاء، هو عمليا ما يميز كيان لبنان ويحصن مقوماته. فمن الصعب تصور لبنان في غير نظامه. والمقصود هنا النظام السياسي البرلماني الديمقراطي الحر في جوهره المنزّه عن الشوائب التي شوهت صورته وأداءه، والنظام الاقتصادي الذي يتلازم معه والذي يرتكز على حرية النشاط الفردي، ولا يصح النظر إلى النظامين السياسي والاقتصادي إلاّ على إنهما صنوان متلازمان.

السؤال المركزي هو : كيف يستقيم النظام الديمقراطي في لبنان مع التشبث بالمقاييس الطائفية أو بأسس التمييز الطائفي. كيف يكون النظام ديمقراطيا إذا ظلت أصوات المطالبة بالمساواة والعدالة وتكافؤ الفرص تسمع من هنا ومن هناك. وكيف تكون مساواة وعدالة وتكافؤ فرص في ظل نظام يقضي بتقاسم المقاعد والمراكز على أسس كثيراً ما تكون بعيدة عن المبادىء الديمقراطية، ويقف مناصب معينة على ابناء طوائف معينة بما ينطوي عليه ذلك احيانا كثيرة من تفريط في مراعاة الكفاءة والاستحقاق في الاختيار وسد الطريق أمام ابناء طوائف اخرى مع ما يستثيره ذلك من أحاسيس الحيف والكبت والحرمان. ما أصدق العبارة التي وردت في البيان الوزاري لحكومة رياض الصلح الاولى في عهد الاستقلال التي ذهبت إلى أن في الطائفية ايهاناً للحياة الوطنية، ففيها بالفعل ايهان للنظام الذي يقترن بكيان لبنان، ومن ثم ايهان لكيان الوطن بالذات.

الطائفية منعت حكم الأكثرية، وقد حالت دون اجراء احصاء سكاني منذ العام ١٩٣٢ لئلا يظهر هذا الاحصاء تكوينا طائفيا للسكان لا يأتلف مع المعادلة المعتمدة في توزع مقاعد التمثيل الطائفي في المجلس النيابي وفي الوزارات، وفي تقاسم المناصب الرئيسية في الادارة والقضاء والجيش، وربما أيضا لئلا يؤثر ذلك على الهوية الطائفية للرئاسات الثلاث. ومحصلة هذا التفكير كانت نظاما لا يأخذ بحكم الأكثرية، نظاما مبنيا على القبول لا بل التمسك بالممارسة الديمقراطية شكلاً ورفض حكم الأكثرية أساسا. كيف تكون ديمقراطية على غير قاعدة حكم الأكثرية؟

■



● لو مات جمل ضياعاً على شط الفرات لخشيت أن يسألني الله عنه.

عمر بن الخطاب

● في وسعي أن أفهم رجلاً يصوب نظره دائماً إلى الأرض ويكون ملحداً. بيد أني لا أستطيع أن أفهم رجلاً يرفع نظره إلى السماء وينكر وجود الله.



نجيب عازوري من خلال زمانه ومكانه

الوضع العربي العام في عصر نجيب عازوري

د. زاهية قدورة

(الحلقة الأولى)

نجيب العازوري ابن زمانه ومكانه. فعازور القرية التي ولد فيها نجيب العازوري قرية من قرى جنوب لبنان التابعة سياسيا لولاية القدس من السلطنة العثمانية التي كانت قد دخلت البلاد العربية في حظيرتها(١)، ما عدا المغرب الأقصى من جهة وحضر موت مع قلب الجزيرة العربية من جهة أخرى. وبعد أن تمت السيطرة العثمانية على البلاد العربية أخذت السلطنة تعمل على ترسيخ أقدامها.

ولم تجابه الدولة التركية معارك تذكر بعد معركتها الأولى مع المماليك في مرج دابق سنة ١٥١٦ إلّا أن بلاد اليمن اتعبت الدولة العثمانية لأسباب منها أن الجيش العثماني دخل في حرب مباشر مع أهل البلاد وافتتح اليمن عنوة. ومن جهة أخرى بحكم عقيدتهم الزيدية لم يعترف اليمنيون بخلافة آل عثمان اذ كانوا يعتقدون أنهم كقريشيين يجب أن تكون الخلافة حكما لأبناء الامام زيد.

• وكذلك لبنان أتعب الدولة العثمانية عندما حصلت الفتنة الطائفية عام ١٨٦٠، وكان للقناصل الأجانب دور أساسي فيها وفتحت المجال لمزيد من تدخلهم تدخلا سافرا، ذلك التدخل الذي لم يكن بداية عهد البلاد العربية مع أوروبا، بل كانت تلك العلاقات قديمة، لكنها لم تظهر كعلاقات لها خصوصيتها وشخصيتها

د. زاهية قدورة:

من مواليد بيروت، حازت دكتوراه في التاريخ من جامعة القاهرة سنة ١٩٥١. أستاذة في الجامعة اللبنانية، رئيسة قسم التاريخ ثم عميدة لكلية الآداب فيها سنة ١٩٧١، لها نشاطات علمية واجتماعية عديدة، وساهمت في مؤتمرات وندوات عربية ودولية، تاريخية، تربوية، ونسائية. من مطبوعاتها:

عائشة أم المؤمنين، الشعوبية وأثرها السياسي والاجتماعي، تاريخ العرب الحديث.

الا بعد ان انطلقت الدولة العربية في فتوحاتها الى بلاد الشام واصطدمت بالدولة البيزنطية، وكان هذا الصدام بداية العلاقة مع المغرب، وكان عسكريا في منحاه ثم تحول في أحد مجالاته الى علاقات حضارية، أنارت دروب أوروبا في القرون الوسطى. عقبت هذه العلاقات، علاقات ذات اتجاهات متعددة، عبر الحروب الصليبية، أو حروب «الفرنجة» ذات المظهر الديني الواضح، المتضمن الحقائق السياسية والاقتصادية، ومن خلال النفوذ الاقتصادي لدول غرب أوروبا الذي أخذ شكل قرصنة وهجمات وعلاقات تجارية. أخذ النفوذ السياسي لهذه الدول يتسرب إلى البلاد العربية إلى أن جاء سافرا ومعلنا مع غزوة نابليون لمصر عام ١٧٩٨.

وكانت العلاقة بين البلاد العربية وأوروبا قد استمرت من خلال الدولة العثمانية التي بلغت أوج مجدها، وذروة توسعها في عهد السلطان سليمان القانوني - في القرن السادس عشر ميلادي - وأوشك العثمانيون ان يُنَصِّبُوا أنفسهم أسيادا على أوروبا(٢)، واحتلوا الدول البلقانية وأصبحت أوروبا الشرقية بمختلف شعوبها وقومياتها ضمن حظيرة الدولة العثمانية، ووصلت الى أسوار فيينا(٣) أكثر من مرة وحاصرتها عام ١٥٢٩ وعام ١٦٨٣.

ولأسباب داخلية وخارجية بدأت الدولة العثمانية تضعف في أواخر القرن السادس عشر، على أثر وفاة سليمان القانوني. ولكن آثار هذا الضعف لم تظهر إلا في منتصف القرن السابع عشر ووضحت في منتصف القرن الثامن عشر، نظرا لتكتل الدول الأوروبية ضد الامبراطورية العثمانية، وللحروب الروسية خاصة. كما أن الأحوال الداخلية كانت قد تقهقرت، إذ بعد أن كان نهج العثمانيين الأوائل المحافظة على البلاد وتطويرها وحماية شواطئها ونشر العدالة بين المواطنين حينا من الدهر، استمر حوالي قرنين من الزمن، ظهر سلاطين غير اكفاء اتبعوا أساليب غير صحيحة في حكم البلاد اتسمت بالاستبداد والسيطرة، واهمال مؤسسات الدولة وعدم تطويرها. وبعد أن كانت الدولة تستفيد من النهضة الأوروبية وتواكب التطور



محمد الفاتح

في عهد محمد الفاتح(٤) وتهتم بالمدنية الغربية عادت تنام على أمجادها الطويلة وتتوقف عن الأخذ من أوروبا التي كانت قد دخلت عصر النهضة، ففقدت الدولة نشاطها كما فقدت مهارتها السياسية. ولم يعد باستطاعتها مواكبة حركة التطور وأصبحت في حالة تقهقر وانكفاء ذاتي.

ومنذ اللحظة التي بدأ الضعف في الدولة العثمانية بدأ مصير الشرق الأوسط يتكون بسبب تحرّك الدول الكبرى التي كانت كلها تتنافس على اقتسام تركة «رجل أوروبا المريض» هذا اللقب الذي أطلقه على الامبراطورية العثمانية، قيصر روسيا، ثم تمسكت به أوروبا فيما بعد.

وكانت روسيا حريصة أشد الحرص على الحصول على مخرج إلى البحر المتوسط، أو الأوقيانوس الهندي. وقد خشيت الدول الأوروبية توسع روسيا، وفقدان الامتيازات التي إكتسبتها في معاهدات متعددة، مكنتها من السيطرة على الشؤون الاقتصادية في الدولة العثمانية. وكان هذا التنافس على اقتسام التركة وعلى خلق مراكز قوى(٥) في المنطقة من الأسباب التي أبقت الوضع القائم مدة من الزمن وساعد الدولة العثمانية على البقاء، كما ساعد على قيام حرب القرم، وكانت القرم منطقة اسلامية في

معظمها – من عام ١٨٥٤ – ١٨٥٦، تلك الحرب التي خاضتها بريطانيا وحلفاؤها ضد روسيا، بغية وضع حد لتلك الطموحات، وانكار إدعاء حمايتها للمواطنين المسيحيين لدى الباب العالي، وكبح تقدمها في البحر الأسود، والمضايق الضيقة(٦).

انتهت حرب القرم بمعاهدة باريس في ٣٠ آذار عام ١٨٥٦، بحضور ممثلي فرنسا وبريطانيا وتركيا وسردينيا والنمسا وبروسيا، وكان من أهم نتائج هذه الحرب أنه كانت لها علاقة بمصير أكثر من شعب في أوروبا الحديثة(٧) وان كانت القرم ميدانا للمعارك في الحرب، وقد أجبر السلطان على التخلي عنها، فكانت أول مقاطعة اسلامية تنسلخ عن الامبراطورية العثمانية.

كما ان حرب القرم تحتل مرحلة تطور بالنسبة للمسألة الشرقية ولاستقلال الدول البلقانية، واستبعاد روسيا عن القسطنطينية، وادعاءاتها لحماية المسيحيين، إذ حلّ حق حماية الاوروبيين للمسيحيين في السلطنة العثمانية محل حق حماية روسيا لهم ، ووضع تركيا تحت النفوذ والتشاور الأوروبي ورفض حق التدخل أفراديا وجماعياً في أمور الامبراطورية العثمانية الداخلية(٨). هذا وإن كانت أسباب ونتائج حرب القرم متعددة، ومختلفة، لكن الدول الأوروبية، تظاهرت برغبتها في الدفاع عن استقلال ووحدة أراضي الدولة العثمانية.

ولم تكن معاهدة باريس، في ٣٠ آذار ١٨٥٦، الخطوة الوحيدة التي اتخذتها الدول الأوروبية، إذ بينما كانت تلك الدول تتفاوض حول المعاهدة، عقد مؤتمر في السفارة البريطانية في اسطنبول، بيْن الوزراء الأتراك وممثلي الدول انتهى «بصك للحريات» وقد ألحق بمعاهدة باريس، وعهد الى تركيا بتحقيق وعودها(٩).

الروح القومية

كانت الثورة الفرنسية، ١٧٨٩، قد مهدت الطريق لحرية الفكر، وللفكرة القومية، واستجاب الناس لها في الامبراطورية العثمانية، وباستجابتهم تلك بدأت موازين القوى تتخلخل، وأسرع الى الظهور التيار القومي والقتال في سبيله، وأخذ الفكر الاصلاحي طريقه الى الوجود في أوروبا وفي العالم الاسلامي.

وقد سرت روح جديدة في بلاد البلقان في منتصف القرن ١٩، وحدثت تحركات بدت هادئة، إنما كانت تنطوي في أبعادها على مستقبل شعوب لم تتكون بعد(١٠). وكانت هذه البلاد قد تأثرت بعدة عوامل وأحداث انعكست عليها، منها، حرب القرم، والاصلاحات التي سارع عبد المجيد بايجادها في اسطمبول عندما كانت معاهدة باريس تتقرر في ١٨ كانون الثاني ١٨٥٦، ثم تحرك الولايات، والدعاية التي كان يبثها عملاء روسيا، والذكريات السعيدة والمثمرة للحكم النابوليوني الأرياني (Illyrians)(١١).

كان من نتيجة ذلك كله أن سرت فكرة القومية لدى سائر الأمم البلقانية، التي ثارت عام ١٨٧٥، ونالت استقلالها تباعا فتكونت خمس دول بلقانية مستقلة على أساس قومي هو اللغة والتاريخ وكانت أول ولادة لهذه الشعوب ولادة المملكة الرومانية عام ١٨٧٨(١٢)، وهو العام الذي دعت فيه الدول الموقعة على معاهدة باريس عام ١٨٥٦، الى مؤتمر برلين، لاعادة النظر في شروط معاهدة سان ستيفانو التي فرضتها روسيا على الامبراطورية العثمانية عام ١٨٧٨، وبها تقرر مصير الدولة العثمانية لعدة سنين لاحقة.

نعود إلى الوضع الداخلي في الدولة العثمانية، فنرى أنه كان لهذه الأحداث وللنهضة الأوروبية عامة تأثير على وضع الامبراطورية العثمانية، فبادرت الحكومة التركية باجراء اصلاحات في أواسط القرن ١٨ إلا أن عراقيل عديدة واجهتها، فلم تستطع التغلب عليها، فتعثرت هذه المحاولة ولم تثمر إلا في أواسط القرن التاسع عشر، وقد اتخذت الاصلاحات عامة، اتجاها جديداً، وهو الاقتباس من الأسس الغربية «واستلهامها»(١٣). وكان ثقل السياسة الخارجية قد دفعها الى هذا الاصلاح، إذ أن حرب القرم والحروب والأطماع الروسية المتطلعة دائما نحو البحر الأسود والمضايق الدافئة وإنكار الدول الأوروبية لهذه



اسطمبول

المزاعم، خلق مناخا من التنافس بين هذه الدول وروسيا.

كذلك أدّت الحركات القومية في البلقان، إلى سلخ بعض الولايات الأوروبية عن نفوذ الدولة العثمانية، كما أدت الغزوات الاستعمارية إلى اقتطاع ولايات شمالي أفريقيا، إذ لم يبق ضمن الامبراطورية العثمانية سوى بعض الولايات في الشرق العربي وكل ذلك دفع بعض رجال الامبراطورية الى التفكير في أحوال أمتهم وكانت جماعة من الشباب الأتراك الذين ترك بعضهم أوطانهم وعاش في أوروبا، وبعضهم تعلّم فيها يطالبون بالحاح باصلاح أحوال البلاد.

«الاصلاحات» العثمانية

بدأت الاصلاحات أول ما بدأت عسكرية زمن مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤)(١٤) واستمرت ببطء زمن عبد الحميد الأول (١٧٧٤ - ١٧٨٩) ثم ظهر أثرها في عهد سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧) الذي كان مستنير الفكر، متحمساً للأصلاح. وكان هذا السلطان مهتماً باعادة تنظيم الجيش على أسس حديثة، فأرسل بعثة عسكرية تعليمية إلى أوروبا كما انشأ سفارات دائمة للباب العالي في عواصم أوروبا الكبرى كلندن، وباريس وفيينا(١٥) لكن نكسة قوية حصلت في نهاية حكم السلطان المذكور، نتيجة لمعارضة الانكشارية الذين ثاروا وقتلوا رجال الاصلاح والسلطان أيضا. ولم تستأنف حركة اصلاح الجيش إلّا في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩) وقد كان الدافع لهذا الاصلاح، الذي انصب على تحطيم الانكشارية انتصار جيش الخديوي محمد علي باشا الكبير والي مصر على الجيش التركي، وإرغامه على الانسحاب من مناطق كبيرة في فلسطين، وسوريا والحجاز، وذلك بفضل تنظيم جيش الخديوي المدرب وأسلحته الحديثة(١٦)، فضرب السلطان محمود الثاني ضربات متعددة وقضى على الانكشارية عام ١٨٢٦م وأنشأ قوة نظامية، وبذلك سهل الطريق أمام الاصلاحات العسكرية التي كانت أولى اهتمامات السلاطين.

وفي أواسط القرن التاسع عشر جرت حركة اصلاح عامة، تناولت الأمور الادارية والقضائية والمالية والسياسية، وقد عرفت المرحلة الأولى منها بـ «عهد التنظيمات» لأنها تناولت تنظيم الدولة على أسس جديدة في

مختلف الميادين، امتدت زمن السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١) الذي أعلن مبدأ المساواة والحرية لجميع المواطنين بصرف النظر عن اختلاف الأديان والمذاهب أو الطبقة وفي عهد عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) الذي عين مدحت باشا صدرا أعظم عام ١٨٧٢، فقام بحركة ثورية ضد عبد العزيز ومراد الخامس، وتمكن من إيصال عبد الحميد الثاني الى السلطنة عام ١٨٧٦.



السلطان محمود الثاني.

وبعبد الحميد الثاني ١٨٧٦ - ١٩٠٩ تبدأ المرحلة الثانية من مراحل الاصلاح العام، وقد عرفت باسم «المشروطية» لأنها حاولت أن تجعل صلاحيات السلطان مشروطة بالقيود المقررة في «القانون الأساسي» الذي أعلن في بداية عهد السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٨٧٦ بجعل الحكم دستوريا. لكن عبد الحميد بعد أن ثبتت أقدامه في السلطة أقال مدحت باشا وألغى الدستور قبل مضي سنتين على نشره، وأوقف الاصلاحات ولم يُعَد العمل بالدستور إلا بعد اندلاع ثورة عسكرية عارمة سنة ١٩٠٨، عرفت باسم «انقلاب المشروطية»، فأعلن الدستور في الرابع والعشرين من تموز عام ١٩٠٨، وتعهد عبد الحميد باجراء انتخابات نيابية واعادة الحياة الدستورية الى البلاد(١٧).

كان وراء «الانقلاب» المذكور، جمعية الاتحاد والترقي التي أسسها حزب «تركيا الفتاة» السري في سالونيك(١٨)، والتي كانت مؤلفة في البدء من صغار الضباط والموظفين الأتراك، الناقمين على الحكم الحميدي، والتي انضم اليها عدد من الضباط والمدنيين العرب. على أمل أن تكون أهدافهم وأهداف الاتحاديين مشتركة تتضمن تحقيق المصالح والأماني العربي. لم يكن عبد الحميد صادقا ومخلصا بوعوده للاتحاديين، فقام بمحاولة انقلابية مضادة، في نيسان من العام نفسه (١٩٠٩م) لكنها فشلت، فأكره الاتحاديون عبد الحميد على التنازل وتولية محمد رشاد، فسيطر الاتحاديون على مقاليد الدولة فترة من الزمن ثم تسلم الحكم حزب «الحرية والائتلاف» حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

إن تحالف أعضاء جمعية (الاتحاد والترقي) مع القوى العربية الوطنية لم يدم، بل كان مرحليا، إذ بدأت الخلافات الأساسية تظهر بين الطرفين عندما تحققت الغاية التي جمعتهمافي البدء، وهي خلع عبد الحميد في عام ١٩٠٩. لقد كان هدف جماعة «تركيا الفتاة» قيام حكومة دستورية مركزية قوية تؤمن الحرية والمساواة لجميع مواطني الدولة العثمانية مع المحافظة على وحدة الامبراطورية وتقويتها ضد الأطماع والضغوط الخارجية. وكانت الحرية والمساواة في نظرهم تعني الحرية والمساواة في الشعور الوطني العثماني بصرف النظر عن العنصر والطائفة أو الدين، على أن تكون السيطرة في الحكومة المركزية للعنصر الاسلامي التركي، وتقوية الحكم الاداري الذاتي في الولايات بينما كان العرب ينظرون الى هذه المساواة على أنها مساواة بين العرب والأتراك مع تقوية اللامركزية الادارية في الولايات العربية.


السلطان
عبد الحميد

كان نتيجة لهذا التفاوت في الأهداف بين الأتراك أنفسهم، وبين العرب والأتراك، أن انفصل «القوميون العثمانيون» المتشددون الذين كانوا يعملون من أجل مركزية قوية، عن الأتراك المتحررين، «الليبراليين» وقد وجد العرب أنفسهم أميل الى «الليبراليين الأتراك» منهم الى «القوميين العثمانيين» الذين تطرفوا فيما بعد بارائهم، فانقلبت من قومية عثمانية الى قومية تركية، كانت سياستها تعزيز العنصر التركي، وتتريك جماعات العناصر الأخرى أو لفرض على جميع أبناء الامبراطورية «شعوراً قومياً واحداً»[19] واستعمال اللغة التركية في المدارس وفي الدوائر الحكومية واستبعاد العرب عن المراكز الكبيرة. رأينا كيف أن سياسة التتريك هذه، «العثمنة» دفعت العناصر الموجودة في الامبراطورية العثمانية إلى التفكير في تأكيد شخصيتهم وهويتهم، وخاصة العرب الذين فكروا في تعزيز عروبتهم فأخذوا يؤسسون الجمعيات والأحزاب العلنية والسرية، التي كانت في البدء تدعو الى اللامركزية الادارية، ثم أصبحت في أول الحرب العالمية الأولى تدعو الى الانفصال الناجز عن الدولة العثمانية، وان ظل البعض يؤمن بضرورة المحافظة على وحدة الامبراطورية العثمانية بأي ثمن كان وهذا مما مهد الطريق أمام رجال العرب الأحرار للأشتراك في ثورة الشريف حسين فيما بعد.

وقد كان للبنانيين مسلمين ومسيحيين دور في التحرك العربي واشتركوا مع اخوانهم العرب بتأسيس الجمعيات والأحزاب بعد ثورة ١٩٠٨ كالجمعية «القحطانية»التي تأسست عام ١٩٠٩، من بعض الضباط في الجيش وغيرهم، وفي طليعتهم عزيز علي المصري، وجمعية «الفتاة» التي أسسها طلاب سوريون في باريس عام ١٩١١، وجمعية «العهد» التي أسسها عزيز علي المصري عام ١٩١٤، وتألفت من ضباط عرب معظمهم من العراقيين.

وكان هدف هذه الجمعيات كلها الاستقلال، في اطار عروبة تربط جميع أبناء العرب.

كانت فكرة القومية العربية هي الفكرة الشاملة التي كان بامكانها توحيد العرب كل العرب على مختلف عقائدهم ومذاهبهم، ولكن أخذت أفكار أو نزعات أقليمية تظهر، أخذ بعض المسيحيين اللبنانيين في لبنان، وفي القاهرة ونيويورك وباريس يتبنونها[20]، منها أفكار لبنانية، انفصالية، وأفكار تؤمن بـ «سوريا» دولة سورية علمانية ديمقراطية لامركزية، تكون حدودها من طوروس حتى سيناء، على أن تكون بحماية فرنسا التي كانت تدعي ان لها حقوقا تاريخية مكتسبة في سوريا - لبنان وسوريا - وكانت فرنسا تبث دعايتها عبر مؤسساتها العلمية في سوريا، وعبر صحافتها وخطب سياسييها. وقد تأثر المسيحيون اللبنانيون عموما بأفكار الغرب أكثر من غيرهم وبخاصة فرنسا نتيجة لاقبالهم على المدارس الأجنبية والتبشيرية وللاتصالات بالقناصل الأجانب.

لم تكن هذه النزعات والأفكار قد تبلورت بعد ولم تكن قد وجدت الخطوط الفاصلة التي عملت لها الدوائر الاستعمارية إلا أن روابط العروبة المتأصلة في تلك الافكار والنزعات كانت القاسم المشترك الموحد فيما بينها، إذ أن أنصار القومية السورية، أو النزعة اللبنانية الانفصالية، كانوا متحمسين، وفخورين باللغة العربية، بلغتهم الأم، وبتراثهم العربي، وبالأرض المشتركة فيما بينهم، لذلك يستحيل انفصالهم عن العروبة بينما جماعة «القومية العربية» كانت تضم ضمن إطارها كل الفروع والروافد..

وأول تحرك عربي جماعي واضح كان له دور في حركة القومية العربي كان من خلال جمعيتين، احداهما جمعية «العربية الفتاة»، التي تأسست عام ١٩١١ في باريس، أسسها بعض الشباب العرب[21] بعدما أنهوا تعلّمهم في اسطنبول، وقصدوا باريس لمتابعة دراستهم

العليا، ثم انضم اليهم جماعة من الوطنيين العرب وأصبح عددهم حتى آخر الحرب العالمية الأولى ٦٠ عضوا من أبناء سورية الطبيعية، وكان الأعضاء في معظمهم مسلمين وقلة من المسيحيين، وأبرز هؤلاء المسيحيين رفيق رزق الله سلوم (٢٢). وكانت هذه الجمعية بالنسبة للعرب على غرار الجمعية التركية «تركيا الفتاة». وقد قامت «جمعية العربية الفتاة» على أساس قومي بهدف تحرير الأمة العربية «خطوة فخطوة بكل الوسائل الشرعية وغير الشرعية»(٢٣) وقد بدأت كما بدأ غيرها من الجمعيات، تعمل للاستقلال الذاتي ضمن إطار الامبراطورية العثمانية، ثم تطورت أهدافها، نتيجة لسياسة تركيا الفتاة «التركية» في بدء الحرب العالمية الأولى وخلالها، وقد تميزت هذه الجمعية بحسن تنظيمها وسريتها وصرامتها في قبول أعضائها، وكانت قوية موحدة متماسكة(٢٤).

أما الجمعية الثانية فكانت جمعية «العهد» التي أسسها عزيز علي المصري في اسطنبول عام ١٩١٣، مع بعض الضباط العرب في الجيش ومعظمهم من السوريين والعراقيين، كان هدفها استقلال الأقطار العربية ضمن الامبراطورية العثمانية، وكان لها فرعان في بغداد والموصل.

وحزب آخر لعب دوراً في حركة إنماء القومية العربية، هو حزب «اللامركزية الادارية العثمانية» الذي أسسه في القاهرة عدد من المثقفين السوريين، هدفه، منح كل ولاية من ولايات الامبراطورية قسطا كبيرا من الاستقلال الاداري، يمكنها من تحقيق الاصلاح ومكافحة أي غزو أجنبي عند الحاجة، إذ أن هؤلاء المثقفين العرب كانوا متخوفين من أن تحذو فرنسا، حذو ايطاليا في طرابلس الغرب، وتشن هجوما على البلاد السورية. وقد حدّد الحزب هدفه ببيان أذاعه في أواخر كانون الأول عام ١٩١٢، جاء فيه:

«إن أفضل أشكال الحكومات هو الدستوري. وأفضل أشكال الحكم الدستوري هو اللامركزي، خصوصا في الممالك التي تعددت فيها الفروق والمذاهب واللغات، واختلفت العوائد والتقاليد والأخلاق فكان من المتعذر أن تساس بقانون واحد لم تراع فيه تلك الأحوال، ولم ينظر معه في الحاجة والزمان والمكان»(٢٥).

وقد أنشأ هذا الحزب فروعا في مدن الشام وغيرها وكانت له اتصالات سياسية بالجمعيات العربية السياسية المختلفة، وكان من أثره المباشر إنشاء «لجنة الاصلاح» في كانون الأول، أيضا ١٩١٢. انشأها أعيان بيروت ونوابها، تألفت من ٨٦ عضوا اثنين وأربعين من المسلمين، واثنين وأربعين من المسيحيين ويهوديين(٢٦) وكانت مطالبها، ممارسة الحكم الذاتي على أساس اللامركزية الادارية، وكان للقناصل الأجانب دور بارز في الدسائس التي كانت تحاك مع بعض رؤساء الجمعيات والأحزاب. وقد كتب والي بيروت أدهم بك، الى حكومته بهذا الصدد «تجتاح البلاد تيارات عديدة وطنية وأجنبية ويساور الوضع هنا خطر محيق، ففريق من الأهلين يرتمي في أحضان فرنسا، وفريق يعتصم ببريطانيا، وما لم تتخذ الدولة العلية اجراءات اصلاحية هامة في وقت قريب أفلتت البلاد من أيدينا ولا ريب»(٢٧) ومن بنود المطالب الاصلاحية التي تقدمت بها الجمعية العمومية، لجمعية بيروت الاصلاحية «تعيين مستشارين أجانب لدوائر الدرك والمالية والبريد والجمرك في مركز كل ولاية على أن يجيدوا احدى اللغات الثلاث: العربية أو التركية أو الفرنسية»(٢٨).

وجاء في عريضة سرية وقعها خمسة أعضاء من أصل اثني عشر عضوا مسيحيا، أرسلت الى القنصل الفرنسي الذي أرسلها الى باريس ما يلي:

«إن السبب الوحيد لدخولهم اللجنة كان التأكد من تعيين مستشارين أجانب في سوريا»(٢٩) وقد انتقدت مجلة المنار بشدة الحقوق التي منحتها اللائحة الاصلاحية للمستشارين الأجانب(٣٠).

وكان من نتيجة هذا الوعي العربي، ان حاولت الحكومة التركية دفع عجلة الاصلاح الاداري، فتألفت جمعيات اصلاحية في مختلف البلاد لكن الحكومة التركية، حاولت خنقها في المهد، مما أثار استياءً كبيرا وضغطا شعبيا في الولايات.

المؤتمر العربي في باريس

إن مقاومة الحكومة الاتحادية لحركة الاصلاح لم تستطع الحيلولة دون متابعة مسارها الذي انتشر داخل البلاد وخارجها، ولاسيما في باريس بين الجالية العربية التي كانت موجودة فيها. وقد فكر خمسة(٣١) من الشباب المتنور الذين كانوا يتابعون دراستهم فيها وكان هؤلاء أعضاء في «الجمعية العربية الفتاة» السرية، بعقد مؤتمر في باريس من ١٨ – ٢٣ حزيران ١٩١٣، فاتصلوا ببعض رجالات العرب، المقيمين في باريس، الذين وافقوا على الفكرة، وتألفت لجنة تحضيرية منهم اتصلت بحزب اللامركزية الادارية في القاهرة في ١١ آذار ١٩١٣ وطلبت من أعضائه ترؤس المؤتمر ووضعه تحت رعايته. وكانت ورقة عمل المؤتمر تعنى في البدء بمعالجة الأمور المتعلقة بسوريا، فأطلق عليه اسم المؤتمر السوري، ثم توسعت الفكرة فأصبح اهتمامه معالجة القضايا العربية كلها، فاطلق على المؤتمر اسم المؤتمر العربي.

وقد عقد هذا المؤتمر في باريس من ١٨ – ٢٣ حزيران عام ١٩١٣، وأشرك فيه ممثلون عن الجمعيات العربية القومية التي كانت موجودة في المدن العربية، وفي المهاجر – أوروبا وأمريكا – وكان المؤتمر العربي الأول يمثل البلاد العربية كافة تمثيلا شاملا بالرغم من أن معظم المؤتمرين كانوا من بلاد الشام(٣٢) والعراق، حيث أن الفكرة الاقليمية ودعواتها المشبوهة لم تكن قد وجدت بعد، اذ أنها من صنع الاستعمار الأوروبي بعد الحرب العالمية الأولى. ويتجلى التجاوب العربي الشامل في رغبة المصريين الذين حضروا المؤتمر المذكور، الاشتراك بالمناقشات بالرغم من أنه كان لمصر حكم ذاتي، وان كانت رسميا بلادا عربية عثمانية، وان اشراكهم في مناقشات المؤتمر قد يثير شكوك الحكومة الاتحادية. فقد سأل الدكتور سيد كامل، (هل للمصري أن يشترك في المناقشات؟) فأجابه عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر بهذا الجواب اللبق:


عبد الحميد الزهراوي

«نحن نحترم اخواننا المصريين ونحترم اراءهم. وبهذه المناسبة اعتذر لأني لم أجد فرصة قبل الآن لتحية الأمة المصرية. والآن نحيي أخواننا المصريين، ونبدي حرمتنا لآرائهم، ونعرف أن مصر عربية عثمانية، ولكن بما أن لها إدارة خاصة لا ينفذ فيها رأي العثمانيين، وكذلك البلاد العثمانية ادارة لا ينفذ فيها رأي المصريين، لذلك أرجو أن يكون هذا عذرا لبقاء مناقشة الشؤون العثمانية الداخلية منحصرة فيمن لارائهم حق التأثير في أحوالهم»(٣٣).

وقد أذاعت لجنة المؤتمر في باريس(٣٤)، بيانا إلى الناطقين بالضاد، في البلاد العثمانية، وفي المهاجر، تدعوهم الى عقد مؤتمر عربي في باريس يدعي اليه ممثلون عن الأمة العربية «المنتشرة في أقطار الأرض» الى تحقيق التضامن الاجتماعي والسياسي لهذه الأمة، ثم دعا البيان أبناء الأمة العربية كافة بخاصة زعماء الجمعيات والهيئات الى الاشتراك شخصيا بهذا المؤتمر أو دعمه بارسال برقيات التشجيع والمساندة، ليخرج المؤتمر من مركز القوة والاجماع العربي(٣٥).

وقد أوضحت لجنة المؤتمر هدفها في البيان المذكور «... ونصارح الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا... وأن العرب شركاء في هذه المملكة، شركاء في الادارة، شركاء في السياسة، وأما في داخلية بلادهم فهم شركاء أنفسهم».

ولخصت ورقة العمل، وأرسلها عبد الغني العريسي مع أحد أعضاء لجنة المؤتمر، ندرة المطران الى وزير خارجية فرنسا حينذاك السيد بيشون مع ذكر الأسباب التي دعت لعقد المؤتمر في باريس. وقد ذكرت المواضيع المطروحة للمعالجة:

١ - «... المصالح السياسية والاقتصادية، الواجب الحفاظ عليها في سوريا لمصلحة السوريين.

٢ - «... حقوق السوريين في الامبراطورية العثمانية.

٣ - «... وجوب الحصول على الاصلاحات اللامركزية.

٤ - «... قضية هجرة السوريين الى الخارج وهجرة الاخوان في الرومللي الى سوريا...»(٣٦).

ويلاحظ من ورقة عمل المؤتمر، ومن الخطب ومن المطالب التي تقدم بها القوميون العرب، أنهم كانوا يطالبون بحقوق العرب ضمن الدولة العثمانية وأنهم لم يهدفوا في البدء الى الانفصال عن الدولة العثمانية إلا بعد أن دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، الى جانب المانيا.

كانت ردود الفعل بالنسبة للمؤتمر، متفاوتة على الصعيدين الشعبي والحكومي، إذ أن الحكومة التركية أدركت مخاطر هذا المؤتمر، وما قد يجر من تكتل وتنظيم المعارضة العربية، فحاولت محاربة المؤتمر بأكثر من وسيلة، منها حمل الحكومة الفرنسية على منع انعقاد المؤتمر في فرنسا، لكنها فشلت، ثم أثارت بعض رجالات العرب الموالين لها، وحملتهم على معارضة انعقاد المؤتمر في بلد أجنبي، والتشكيك في بعض الشخصيات القائمة على المؤتمر، كما ان بعض الشخصيات أو الزعامات العربية الوطنية عارضت المؤتمر، وكان في طليعهم الأمير شكيب أرسلان، وقد فعلت ذلك تخوفا من هيمنة فرنسا وتدخلها فيما بعد. فقال بذلك: «ويقال أن مختار بيهم والزهراوي، وسلام، وطيارة، لحظوا أن مراد رفاقهم المسيحيين لم يكن استقلال سوريا ولكن فصلها عن تركيا ووضعها تحت حماية فرنسا(٣٧). كما أن رأيه أن لفرنسا مطامع شخصية في سورية ولبنان، وان انشغال الدولة التركية بحروب البلقان قد أفقدها كثيراً من قوتها وهيبتها مما يلحق الضرر في الترك والمسلمين كافة في الدولة العثمانية.

أما فرنسا، فقد كانت تهدف إلى تحقيق مصالحها أولا وأخرا وهي محاربة الدولة التركية من الداخل باثارة العرب عليها، انتقاما منها لتعاونها مع عدوتها التقليدية المانيا، كما كانت تخطط لنيل حصتها من «تركة الرجل المريض» وقد صرحت انها لا تستطيع منع المؤتمر لأن ذلك «سيلحق أضرارا بالغة بالنفوذ الفرنسي في سوريا..»(٣٨).

عقد المؤتمر يوم الأربعاء في ١٨ حزيران عام ١٩١٣، في قاعة الجمعية الجغرافية بشارع سان جيرمن في باريس، وقد استمر ستة أيام، عقد خلالها أربع جلسات(٣٩)، وانتخب عبد الحميد الزهراوي رئيسا، وشكري غانم نائب الرئيس وأربعة وكلاء، وأربعة كتاب العربية، وكاتب الفرنسية(٤٠). وكانت عضوية المؤتمر تكاد تكون مناصفة بين المسلمين والمسيحيين(٤١) وقد خصص ندرة المطران في المؤتمر كلمة شكر وتقدير للحكومة الفرنسية لحسن استقبالها وكريم ضيافتها.

وقد تضمنت المناقشات في جلسات المؤتمر المواضيع المذكورة في ورقة العمل، وأفكاراً متعددة، وكان الزهراوي أول الخطباء، فأشاد بالحرية السائدة بالغرب، وتمنى على الشرق الاقتداء به، ثم ذكر موضوع استئثار الأتراك بشؤون الحكم، والرغبة في الاصلاح مع التمسك بالرابطة العثمانية، وكذلك فكرة تعزيز اللغة العربية، وجعلها رسمية في البلاد العربية بمادة قانونية تذكر في القانون الأساسي لا قانون حكومة موقت(٤٢).

وشدد ندرة المطران على الوحدة القومية التي تجمع بين المسلمين والمسيحيين في أمة واحدة، وعلى ضرورة ارتباط العرب بالدولة العثمانية.

إن هذا الاجماع على بعض المفاهيم الأساسية لم يمنع من وجود اختلافات جوهرية في الآراء، وأبرزها، موضوع المستشارين الأجانب(٤٣) الذي أثار مناقشات حادة ضمن

المؤتمر وخارجه، كما كانت خطب بعض الأعضاء تتضمن ثناء على فرنسا وتبرئة اوروبا من اخطائها نحو الامبراطورية والتأكيد على ان الخطر الحقيقي يكمن في الداخل، في «انحطاطنا نحن»(٤٤). ويظهر هذا الاختلاف بوضوح زيارة أحمد مختار بيهم موفدا من قبل المسؤولين في المؤتمر الى وزارة الخارجية الفرنسية، ليؤكد أن العرب شديدو الارتباط بعثمانيتهم ولا يرضون لهيمنة الفرنسيين عليهم بالرغم من تقديرهم للفرنسيين، وقد ظهر ذلك من الرسائل التي كتبها وزير خارجية فرنسا الى قناصل فرنسا يقول:

«إن الحركة الاصلاحية العربية قد انقلبت علينا ولذلك يجب عليكم أن تتظاهروا بمساعدتها لكي تكسبوا قلوب الأهلين على أن تسعوا – في الخفاء – للقضاء عليها»(٤٥).

وإذا أردنا أن نقيم نتائج المؤتمر العربي المنعقد في باريس نستطيع أن نعتبره في رأيي، مؤتمرا ناجحا بالرغم من المناقشات والاختلافات التي دارت حول بعض النقاط الأساسية. فقد اتخذ المؤتمر القرارات بالاجماع(٤٦)، وكانت وحدة الصف وإن لم تكن وحدة الهدف واضحة. فانعقاد المؤتمر ومناقشاته، وقراراته تمثل مرحلة تاريخية من مراحل نمو فكرة العروبة، وتطور الفكر العربي السياسي ونضج مفهوم الأمة(٤٧) والقومية العربية(٤٨) وباستبعاد المؤتمر عن الأهداف الطائفية، وان العرب كلهم أبناء أمة عربية واحدة(٤٩)، بالرغم من اختلاف طوائفهم، وهذا ما صرح به رئيس المؤتمر، عبد الحميد الزهراوي(٥٠).

إن انعقاد المؤتمر في باريس وإن لم يكن قد خرج بالنتيجة المرجوة، لكنه أثار الوعي العربي العام في داخل الامبراطورية العثمانية، ونقل القضية العربية الى المجال الدولي.

أبدت حكومة تركيا الفتاة بادىء الأمر استعدادا للتعاون مع المؤتمرين بشؤون مصالحهم، ثم جرت اتصالات غير مباشرة بين الطرفين في اسطنبول، واتفق على بعض التعديلات التي على أساسها وافق المؤتمرون على مفاوضة مندوب الاتحاد والترقي(٥١) الذي حضر إلى باريس، وتوصل الطرفان الى عقد اتفاق في تموز ١٩١٣. على أثر هذا الاتفاق سافر وفد من المؤتمرين الى الأستانة حيث جرى الاتفاق النهائي على البنود الاصلاحية، وقع عليها وزير الداخلية التركي ومندوب عن الشبيبة العربية عبد الكريم الخليل، بقي الاتفاق سراً إلى أن أعلن في ١٨آب ١٩١٣، بمرسوم سلطاني، فتبين حينذاك أن تعديلات أساسية أجريت، أو أحيطت بالغموض، فأحدث هذا خيبة أمل عند الوطنيين العرب، وبدأت تتكون لديهم فكرة استقلال العرب، «وأن سبيلهم إلى ذلك لا يتم إلا بالقوة»(٥٢) وهذا ما كان ينادى به من قبل نجيب عازوري لذلك لم يكن متحمسا، في رأي(٥٣) (E.gung) للمؤتمر. ■

الهوامش

(١) دخل العثمانيون دمشق عام ١٥١٦ على أثر معركة مرج دابق – قرب حلب، ودخلوا القاهرة عام ١٥١٧ بعد معركة الريدانية – عند مشارف القاهرة، وانتزعوا بغداد من الصفويين عام ١٥٤٣، والبصرة عام ١٥٣٩ التي أصبحت ولاية عثمانية عام ١٥٤٦ وهكذا...

(٢) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ص٥٧.

(٣) (Jhon Marriott, the eastern question, p.90, 122-123.

(٤) البرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ص٥٩ – ٦٠.

(٥) (Jhon Marriott: the eastern question 225-249)

(٦) (Jhon Marriott: the Eastern question p.285, Richard Hilton: the Thirteeth Power p.13-14).

(٧) .(Jhon Marriott: the Eastern question, p.284)

(٨) (Jhon A.R. Marriott, the Eastern question, 249, 284, 309, 310)

(٩) (Ibid. p.310-313) (- Ibid, p.285.)

(١٠) والأريانيون هم الأسم القديم للالبانيين الجبليين.

(١١) (Ibid. p.48,413)

(١٢) .(Jhon Mariott, the Eastern question, p.285)

(١٣) ساطع الحصري، الدولة العربية والدولة العثمانية، ص٦١.
(١٤) للتفصيل عن الاصلاحات، راجع ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ٦١ - ٦٣، ثم ص٧٥ وما بعدها.
(Jhon Mariott, the Eastern question, p.310-311).
(١٥) سليم الصويص: أتاتورك ص١٧.
(١٦) المصدر نفسه: ص٢٠،٢١.
(١٧) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ص٩٤ - ٩٥.
(١٨) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص١٧٥.
(١٩) البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص٣٣٦.
(٢٠) البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص٣٤٠ - ٣٤١.
(٢١) هم: رستم حيدر، أحمد قدري، عوني عبد الهادي.
(٢٢) أحمد قدري مذكراتي.. ص١٣، وسليمان موسى، الحركة العربية، ص٣٢.
(٢٣) من رسالة عبد الغني العريسي، بتاريخ ٢ كانون الثاني ١٩١٢، الموجود في باريس الى محي الدين الخطيب، (أوراق محب الدين الخطيب - القاهرة).
(٢٤) جورج انطونيوس، يقظة العرب، ص١٧٨ - ١٨٨.
(٢٥) الشيخ رشيد رضا، المنار - مجلد ١٦، ج٢، فبراير ١٩١٣، ص٢٢٦ (من نص البيان).
(٢٦) رشيد الخالدي، القومية العربية في سوريا سنوات التكوين ١٩٠٨ - ١٩١٤ «الفكر العربي» السنة الأولى عدد ٢، ص٤٧، معهد الانماء العربي، بيروت ١٩٧٨.
(٢٧) عادل اسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي، الجزء الرابع، بيروت ١٩٧٤.
(٢٨) مجلة المنار، مجلد ١٦، ج٤، ص٢٧٥، (لائحة الاصلاح لولاية بيروت).
(٢٩) رشيد الخالدي، القومية العربية في سوريا سنوات التكوين ١٩٠٨ - ١٩١٤. الفكر العربي، السنة الأولى، عدد٢، ص٤٨، الانماء العربي، بيروت ١٩٧٨.
(٣٠) المجلد ١٦، ج٤، ص٢٨٠.
(٣١) المؤتمر العربي الأول، ص٤و٥. (وهم عبد الغني العريسي من بيروت، عوني عبد الهادي من نابلس، أحمد المحمصاني من بيروت، جميل مردم بك من دمشق، وتوفيق فائد من بيروت.
(٣٢) تعني لبنان، وسوريا، وفلسطين والأردن.
(٣٣) مصطفى الشهابي، القومية العربية، ص٩٦ - ٩٧.
(٣٤) المؤتمر العربي الأول، ص٤ - ٥.
(٣٥) المصدر نفسه، ص١٠ - ١١.
(٣٦) راجع وثائق وزارة الخارجية الفرنسية (1er Juin 1913).
(٣٧) الأمير شكيب أرسلان، سيرة ذاتية، ص١٠٩.
(٣٨) من وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، (12 Juin, 1913).
(٣٩) جورج انطونيوس، ص١٩١ - ١٩٢.
(٤٠) المؤتمر العربي، الأول، ص٢٥ - ٢٦ - ٢٧.
(٤١) جورج انطونيوس: يقظة العرب، ص١٩١ - ١٩٢.
(٤٢) المؤتمر العربي الأول، ص٤٢ - ٤٩.
(٤) كانت «لجنة الاصلاح» في بيروت قد تبينت هذا الرأي، قد تبنى هذا الرأي ممثلو الاصلاح، وفي مقدمتهم شارل دباس وخليل زينة.
(٤٤) المؤتمر العربي الأول، ص٣٨.
(٤٥) ساطع المصري، نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية، ص٢٠٢.
(٤٦) المؤتمر العربي الأول، ص١١٣ - ١١٩.
(٤٧) خطاب عبد الغني العريسي، المؤتمر العربي الاول، ص٤٣.
(٤٨) كلمة ندرة المطران، المؤتمر العربي الأول، ص٥٨ - ٥٩.
(٤٩) ساطع الحصري، نشوء فكرة القومية في البلاد العربية، ص١٩٣ ومصطفى الشهابي، القومية العربية ص٩٨.
(٥٠) (Le temps, No.18969, 10 Juin, 1913)
(٥١) مجلة المنار، م١٦، ج٨، ص٦٣٥ - ٦٣٦.
(٥٢) البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ص٣٢٩.
(٥٣) (La Révolte Arabe, i.117)

ilhelm,
naden
ig von Preußen,
etc:



القيصر ويليام الأول

بسمارك والمسألة الشرقية

نظرة نقدية

د. مروان بحيري
ترجمة: وليد حمارنة

د. مروان بحيري: خريج جامعة برنستون ـ أستاذ التاريخ المعاصر في الجامعة الأميركية في بيروت.



بسمارك



هناك اتفاق عام بأن الأمـير بسمارك كان الشخصية السياسية المهيمنة في النصف الثـاني من القرن التـاسـع عشر. وكشـاهـد عـلى هـذا يُؤَكَّدُ عـلى دوره كالمهندس الأساسي للوحدة الالمانية ولشبكة من التحـالفات جعلت من بـرلين مـركز الجـاذبية الأوروبي. ونستطيع هنا الاستشهاد بما قاله أحد المصادر الغربية وهو المؤرخ ج. كريج (G. Craig) في كتاب «**من بسمارك إلى أدينـاور: جـوانب فن الحكم في إلمـانيـا**» (ص: ١٥) «اعتبره الكثيرون نوعاً من الظاهرة التـاريخية التي لن تتكرر ونموذجاً يقاس عليه كل رجل دولة».

كذلك يمكن استشفاف تقييم مشابه لمكانة المستشار الحديدي في العالم العربي قبل الحرب العالمية الأولى وذلـك في الأيام الأولى من نشر الكتب والجرائد. ونذكر على سبيل المثال جريدة «طرابلس»(١٨٩٣) لمحمد كامل البحيري، ومجلة جرجي زيدان القاهرية«الهلال»(١٨٩٨) ومقالات مختلفة للأخوين، بني في مجلتهم الطـرابلسية «المباحث» في الفترة ما بين عـامي (١٩٠٨ و ١٩١٤). ويبدو أن هناك العشرات من الأمثلة الأخرى.

وبينما يبدو ما قيل سابقا صحيح بالنسبة لمعالجته قضـايا قلب القـارة الأوروبية، فإن من الممكن إبـداء بعض الشكوك حـول مـا يتعلق

بقضايا أطراف القارة وبقية العالم. ولذلك فإن دوره في المسألة الشرقية (وهي بالنسبة لنا في هذه الدراسة تتكون من البلقان وتركيا والمقاطعات العربية في الامبراطورية العثمانية) هو موضوع خلاف، وهناك العديد من التساؤلات حول ما إذا كان بسمارك قد بذل فيها نفس الطاقة وكانت له فيها نفس البراعة والرؤيا التي كانت له في معالجة مشاكل قلب القارة الأوروبية. هذا إذن هو أحد تناقضات بسمارك: النجاح في المجال الأوروبي والسقوط في المجال العالمي وخاصة فيما يتعلق بالمسألة الشرقية، أو بكلمات أخرى، التفرقة الخاطئة التي عمل بها كرجل دولة واستراتيجي بين قلب القارة الأوروبية وأطرافها. وهذه المقولة هي المقولة الأساسية في مقالنا هذا.

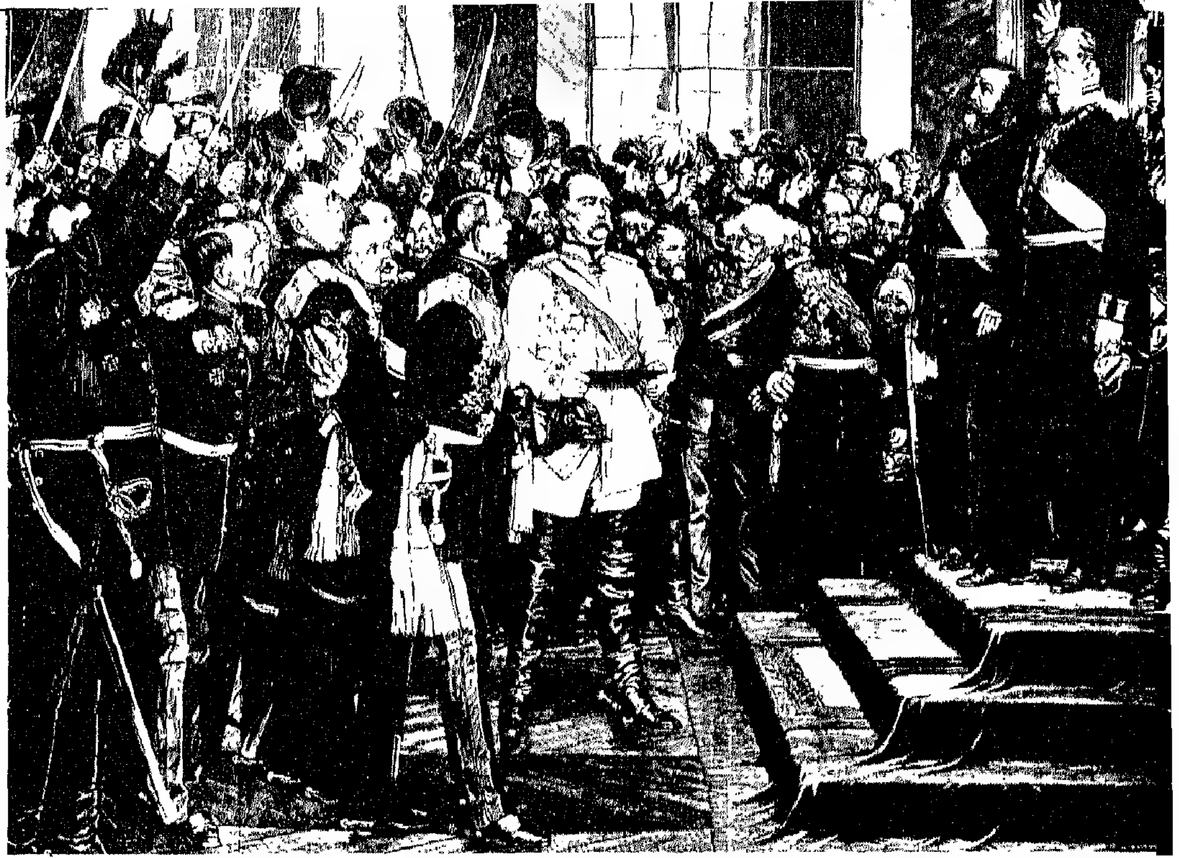
١ - النظام البسماركي بعد عام ١٨٧١:

بعد أن استطاع المستشار بسمارك إلحاق الهزيمة بمنافسته الأساسيتين النمسا وفرنسا وتحقيق حلمه بتوحيد الدويلات الألمانية المتناثرة تحت عرش بروسيا أضحت رؤيته لألمانيا الجديدة التي عمل لتحقيقها، وكما قال هو«كقوة مكتفية ومشبعة» أي أنه لم يعد من الضروري القيام بحملات أخرى بعد عام ١٨٧١، فالمهم الأشد أهمية كانت توطيد موقع الهيمنة الجديد لألمانيا في أوروبا وذلك بغرض السلام وردع الآخرين عن القيام بأية أعمال قد تُضعف سيطرة إلمانيا القوية على موازين القوى في القارة. وكان هذا يعني عملياً الاحتفاظ بالتفوق العسكري الالماني الكبير الذي استطاعت بروسيا تحقيقه وتوسيعه ليشمل كافة عناصر القوة الحربية الالمانية. وثانياً: الاحتفاظ بموقع المبادرة الدبلوماسي وذلك بجذب أكبر عدد ممكن من الدول الأوروبية في مدار نفوذها. ثالثا: تأمين بقاء فرنسا معزولة فعليا - وربما كان هذا حجر الأساس في صرح الاستراتيجية البسماركية. ورابعاً: تأمين عدم إعطاء مبرر أو سبب لبريطانيا كي تعيد النظر في حيادها (كي لا نقول بعدها وانعزالها) تجاه مشاكل القارة. وبالنسبة للنقط الأخيرة فقد عنى هذا في الواقع إعطاء بريطانيا الحرية الكاملة في عالم المستعمرات في أواخر القرن التاسع عشر أو بكلمات أخرى، كان بسمارك مستعداً بمقابل الاحتفاظ بالوقع الراهن في أوروبا تحت هيمنة الامبراطورية الالمانية أن يُسلم بوضع راهن آخر في المجال العالمي تحت هيمنة بريطانيا.

أما عصبة الأباطرة الثلاثة التي أُقْنعَتْ كل من المتنافستين الشديدتين النمسا وروسيا بالانضمام إلى إلمانيا فيها، عبر خطوات متناسقة هدفت إلى إعانة كل واحدة للأخرى في شؤون الأمن والعمل المشترك في ما يخص التهديد بالعدوان فقد كانت دلالة واضحة على مبدأ بسمارك الثاني. وبالرغم من أن دوائر مؤثرة عديدة كانت تعارض ما بدا لها نظاماً متناقضاً إذ أنها لم تستطع رؤية إلمانيا قادرة على تحقيق تحالف مع قوتين متنافرتين كالنمسا وروسيا في نفس الوقت. إلا أن هناك كل ما يوحي بأن مقولة التناقض لم تكن مؤثرة في السياسة بالنسبة لبسمارك كذلك لم يكن المصطلح هذا ذو معنى في لغته الدبلوماسية. وعلى أية حال فطالما بقيت إلمانيا مركز الاتفاق الثلاثي هذا - أي الثالث الذي لا مفر منه - فإن هذا كفيل بكبح كلٍ من النمسا وروسيا.

أما بالنسبة للمبدأ الأول أي التفوق العسكري التام فقد كانت خطته أي خطة بسمارك والاستراتيجي مولتكه الحفاظ على مستوى الجيش الالماني عدديا بما يساوي ١٪ من مجموع السكان أي حوالي ٤٠٠ ألف رجل، وتأمين عدم هبوط نوعية الضباط وكفاءة الأركان العامة. ولم يبد بسمارك اهتماما كبيراً بالقوة البحرية وذلك بسبب أصوله الزراعية اليونكرية[١] وكذلك لأنه لم يكن يود استفزاز بريطانيا في مجالي القوة البحرية والمستعمرات الحساسين بالنسبة لها.

(١) اليونكر (Junker) مصطلح إلماني يعني الاستقراطي الزراعي الريفي في المناطق الوسطى والجنوبية من إلمانيا.



ويليام الأول يعلن انشاء الامبراطورية الألمانية من قصر فرساي - فرنسا - في ١٨ كانون الثاني ١٨٧١

(٢) - الحرب الروسية التركية عام ١٨٧٨ وتدخل بسمارك الدبلوماسي.

كان النظام البسماركي، نظرياً على الأقل، قد خُطط للحفاظ على السلم عبر التنظيم الفعال للمشاكل الدولية وخاصةً في القارة الأوروبية في أعقاب حروب التوحيد الالماني والايطالي التي تكللت بالنجاح. ولكن هذه السياسة لم تنجح في منع حدوث أزمة بين روسيا وتركيا في شرق أوروبا والبلقان الهائج مما هدد بالنمو كي يصبح حريقاً أوروبياً عاماً. فقد فشلت توقعات عصبة الاباطرة الثلاثة في التحقق وبدا واضحاً أن العصبة قد انهارت. ولم يشك أحد بنتائج الحرب، فقد توقع أكثر المراقبين انتصاراً روسياً سريعاً. ولكن روسيا تغلبت على تركيا بعد حملة طويلة وصعبة ومكلفة أكثر مما كان متوقعاً. فقد قاتلت الوحدات السورية والفلسطينية في الجيش العثماني ببسالة وخاصة في يليفنا، وبذلك خُلصت الامبراطورية التركية من الانهيار السابق لأوانه. وقد قام السلطان عبد الحميد بتذكير تيودور هرتزل بهذه الحقيقة المهمة عندما كان الأخير يحاول الحصول على ترخيص من القسطنطينية لاقتراحه بإنشاء دولة صهيونية في فلسطين.

وقد مثل الانتصار الروسي اللاحق ومعاهدة سان ستيفانو القاسية التي فرضتها روسيا على السلطان، بالنسبة للجميع، نصراً واضحاً لطموحات القياصرة الروس القديمة. فقد خُلقت بلغاريا الكبرى على حساب مقاطعات تركية في البلقان تحت الرعاية الروسية مما زاد في الهيمنة الروسية القوية آنذاك في شرق أوروبا والبلقان. زيادة على ذلك أُجْبِرَتْ تركيا على التخلي عن مساحات في آسيا خاصةً منطقة باطوم الاستراتيجية والغنية وبذلك أصبحت روسيا أقرب إلى مواقع بريطانيا الاستعمارية في آسيا والمتمركزة في الهند وأفغانستان. كل هذه

..ولم يكن للرجل ميل في سياسته إلى الشرق واهله وكان يقول «ان المسألة الشرقية كلها لا تساوي عندي عظمة من عظام عسكري واحد» وكان لا يرغب في محالفة الدولة العلية ابدا واختلف مع الامبراطور الحالي على ذلك كثيرا. ويروي ان دولة رياض باشا لما سافر الى اوروبا عقب الثورة العرابية رغب في مقابلة البرنس بسمارك ودعته شدة الرغبة الى الالحاح فضرب له البرنس موعدا ودخل عليه بلباس الصيد ولم يزد على على أن قال له «ها انا بسمارك فان كنت تريد رؤيتي فقد رأيتني» ثم تركه وانصرف.

الهلال ١٥ آب ١٨٩٨ ص٩١٢



الغلاف الداخلي
لعدد ١٥ آب ١٨٩٨
من مجلة الهلال المصرية.

الأرباح الروسية أغضبت النمسا ذلك لأنها رأت (كبريطانيا العظمى) أن الاختفاء الفعلي للمقاطعات التركية في أوروبا قد جعل روسيا قريبة جداً وبشكل خطر من العاصمة التركية. وبذلك فقد خرقت موازين القوى في تلك المنطقة بقوة.

أرسلت بريطانيا أسطولها على وجه السرعة إلى مضيق الدردنيل لحماية القسطنطينية بينما كان السياسيون في فيينا يتحدثون بصراحة عن إمكانية دخولهم في صراع مع سانت بطرسبورج. وبينما كانت أوروبا تقترب من الحرب، تدخل بسمارك كوسيط. كان بسمارك يؤمن بأن حرباً عامة في القارة ستخلق مضاعفات خطيرة على الدولة الألمانية الموحدة حديثاً، فالشعور الانفصالي في ألمانيا لم يكن قد زال نهائياً بعد. ولذلك تدخل المستشار الحديدي في الأزمة مقترحاً مؤتمراً دولياً في برلين يهدف إلى حل أكبرعدد ممكن من المشاكل وإيجاد نوع من الانفراج بين القوى المتصارعة.

أما دوره في هذا المجال – وكما قال هو – فسيكون دور الوسيط الأمين (السمسار المستقيم) والذي ستبقى يداه نظيفتان أي أنه لن يحقق مكاسب من وراء هذا المؤتمر. وكما ذكرت مجلة (الهلال) المصرية في الاطار أعلاه، فقد كان معروفاً أن بسمارك لم يعر أية أهمية للبلقان، وكان يُصر على أن المسألة الشرقية لم تكن تستحق بأن تستأثر من وقته شيئاً. لكنها هذه المرة كانت تهدد بإشعال نار حرب لم تكن من اختياره قط ولذلك لم يستطع

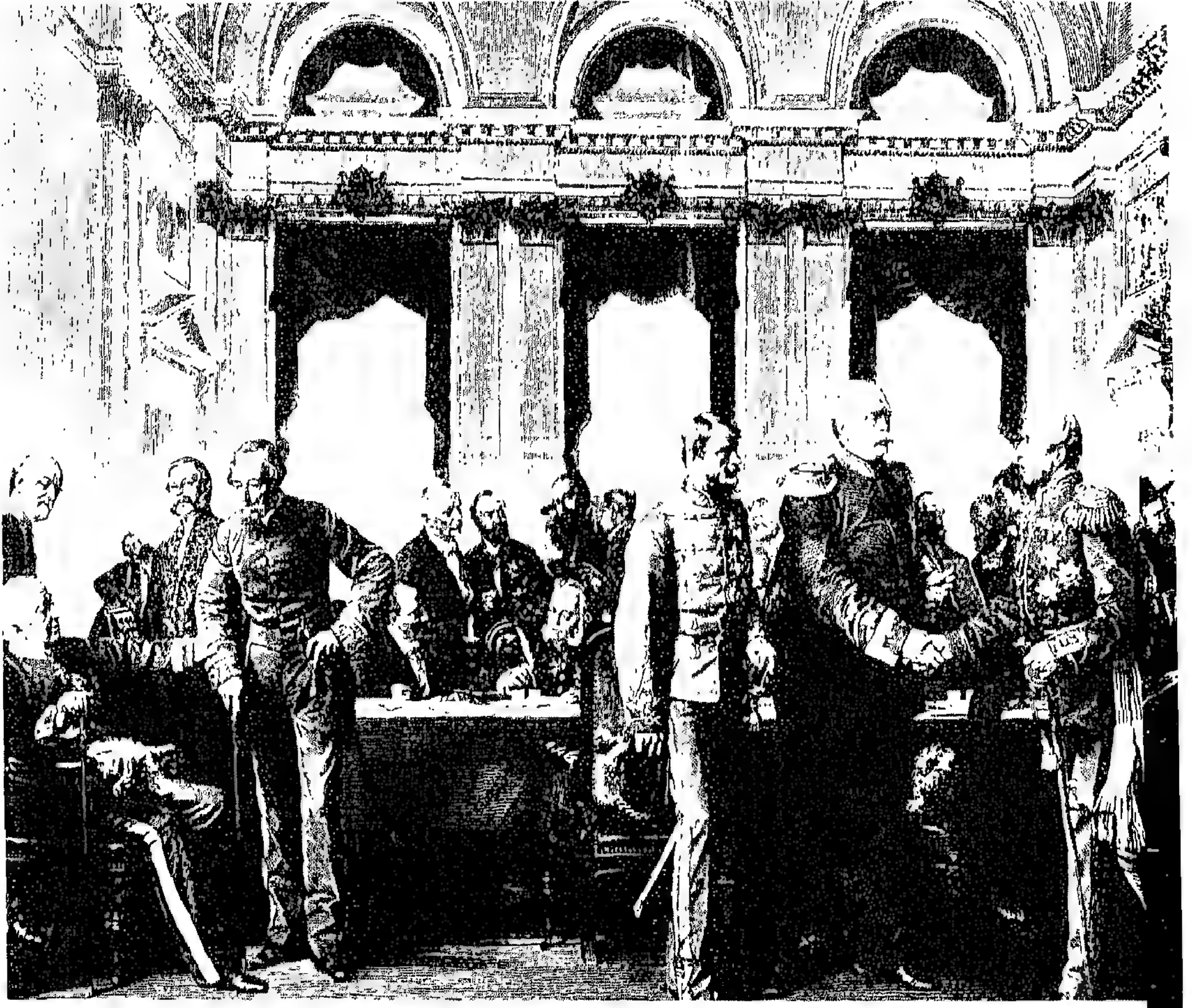
سوى لعب الدور الحاسم الذي دعته إليه الظروف.

(٣) - مؤتمر برلين: الاتفاقات العلنية واتفاقات ما وراء الكواليس.

لنستشهد هنا بكلمات المؤرخ تيلور (A.J.P.Taylor) صاحب الكتاب الذي يبقي أكثر السير السياسية الثاقبة للمستشار الحديدي

الكبار نكهة أسلوبه الملوكي الخشن الذي كان يعامل به سياسي المانيا في أمسيات الجعة... كان يتجاهل البروتوكول ويرى وهو يلتهم الأربيان (القريدس) بيد والكرز باليد الأخرى» (ص ١٧٧).

لكن بالاضافة إلى التسلية المتوفرة، قام المؤتمر بالأعمال الجادة أيضا، فقد كانت هناك مشاكل سببها تنافس المصالح والشكوك

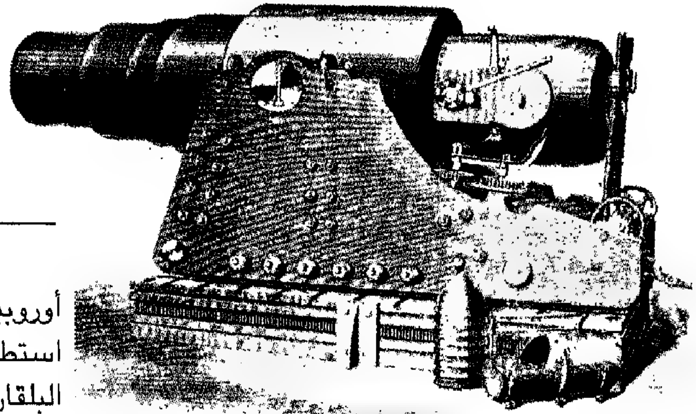


بسمارك مجتمعاً بسياسيي اوروبا في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨

بعنوان: **بسمارك الرجل ورجل الدولة** إذ يقول:

«كان المؤتمر (مؤتمر برلين) نموذجاً لشخصية بسمارك، فقد كان الاجتماع الدولي الوحيد الذي ترأسه ولم يسبق لأحد أن ترأس مؤتمرا بهذه الطريقة. فقد أذاق حكام أوروبا

المتبادلة. ويمكننا القول أن إرادة بسمارك الهائلة المدعمة بنفوذه قد منعت المؤتمر من الانهيار. وفي تموز ١٨٧٨ كان المؤتمر قد توصل إلى البنود العامة للاتفاق، فقد أعطيت الامبراطورية العثمانية - أو ما تبقى منها -



مدفع عيار ١٠٠٠ باوند رمز القوة العسكرية الألمانية (اواخر القرن التاسع عشر).

الضمان الاعتيادي بوحدة أراضيها الاقليمية.

أما الصرب ومونتنيغرو ورومانيا فقد أعطيت وضع الدول المستقلة الشرعي، بينما أعطيت الوعود بتوسع إقليمي لا حق لليونان. وخُفضت مساحة بلغاريا الكبرى التي خلقها مؤتمر سان ستيفانو بحوالي الثلثين. وسمح لروسيا بالاحتفاظ بمناطق قارس وأرضخان وباطوم التركية. كذلك منحت النمسا حق احتلال وإدارة المقاطعتين التركيتين البوسنة والهرسك

أما بريطانيا، حامية السلطان المزعومة فقد اقتنصت جزيرة قبرص من الدولة العثمانية (وذلك لتوفير حماية أفضل لملكة السلطان في المستقبل كما كان الادعاء). لكنها بالمقابل وعدت فرنسا بأنها أي إنكلترا، لن تعارض احتلال فرنسا لتونس. وربما كانت هناك اتفاقات أخرى من وراء الكواليس بين فرنسا وبريطانيا فيما يخص مستقبل سوريا ومصر. أما إيطاليا بدورها فقد لمحت إلى مطالبها في البانيا وطرابلس الغرب، بينما خرج بسمارك الوسيط الأمين خالي الوفاض من المؤتمر، إلا أنه كان قد عقد صداقة وثيقة مع دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا في المؤتمر وأيّد احتلال بريطانيا لجزيرة قبرص على أساس أن هذا عملاً شعبياً وتقدمياً. وقد نُقل عن دزرائيلي أنه علق بريائه المميز على موقف بسمارك هذا بالقول: إن نظرة بسمارك للتقدم تشتمل بوضوح على أخذ شيء ما من شخص آخر.

(٤) - بسمارك والمسألة الشرقية: تقييم أولي.

نجح مؤتمر برلين من جهة في تفادي حرب أوروبية بين روسيا والنمسا وإنجلترا. وربما استطاع المؤتمر إيجاد توازن متقلقل في شؤون البلقان. هذه هي إنجازات المؤتمر على المدى القريب.

ومن ناحية أخرى، وعلى المدى البعيد فقد دشن المؤتمر بقيادة بسمارك الفعالة التزاحم الكولونيالي (الاستعماري) على المستعمرات ودبلوماسية الامبريالية الحديثة. فقد تلا احتلال بريطانيا لقبرص احتلال فرنسا لتونس واحتلال بريطانيا لمصر. وقد شجع بسمارك وتبنى خطوة بريطانيا الأخيرة بحرارة.

ويمكننا القول بأنه إذا كان افتراض بسمارك الرئيسي الابقاء على عزلة فرنسا فان إخراجاته في برلين عام ١٨٧٨ تبدو وكأنها قد بذرت بذور الحلف الودي الفرنسي البريطاني اللاحق بتوفير فرصة ذهبية للمتنافسين الكولونياليين لعقد اتفاقات وتنسيق الخطوات اللاحقة في المجال الاستعماري.

أما بالنسبة للبلقان، فإن استخفاف وتجاهل بسمارك التامين للطموحات القومية فيه لم يساعد على تخفيف العداء الشديد الذي اجتاح صدور الناس خاصة في الصرب والذي لعب دوراً في إشعال نار الحرب العالمية الأولى.

وأخيراً بالنسبة لبسمارك كانت المسألة الشرقية لا تستحق عظام جندي إلماني واحد. لكن الفوضى التي صنعها هو والاوروبيون الآخرون من المسألة الشرقية والتنافس الاستعماري كانت من الأسباب التي ساهمت في اندلاع الحرب العالمية الأولى والتي أزهقت أرواح عديد بل العديد من الجنود الالمان.

■



جرجي ينّي

المباحث

الجزء الثاني من السنة الثالثة

اول شباط (ففريه) سنة ١٩١١ الموافق اول صفر سنة ١٣٢٩



كان جرجي ينّي أحد اعلام حركة النهضة في القرن التاسع عشر في طرابلس الشام وقد نشر كتابه الرئيسي "تاريخ سورية" عام ١٨٨١ والذي كان له تأثير عظيم في كتابة التاريخ في تلك المرحلة. ونشر كذلك مقالات عديدة في المقتطف القاهرية. وبُعيد انقلاب حزب تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ اصدر في طرابلس بالتعاون مع أخيه صموئيل مجلة المباحث وننشر فيما يلي صورة عن الأصل لمقال نشر في عدد الأول من شباط عام ١٩١١ من هذه المجلة.

المانيا

يعجب الناس لهذا العهد من المانيا ويستعظمون قوتها وحولها وسرعة ارتقائها الى المكانة العظمى بين دول الارض ويتساءلون عن مصدر هذه العظمة وتتشوف نفوسهم لاستطلاع سر هذا النجاح الباهر ولذلك رأينا ان نطرف قراءنا الالباء بما يكشف لهم الامر

فابناء هذه الامة يجمعهم على الاكثر اصل واحد هو الجرماني الا انهم لايدينون كلهم لحكومة واحدة وانما درجوا منذ القديم على التفرق في حكوماتهم

ول جمعتهم اللغة الواحدة وتسربت اليهم العادات والمناهج المتماثلة

فهم لهذا العهد — ومنذ بضع عشرات من السنين — عبارة عن امة تسكن اقطاراً متلاحمة الاجزاء كل قطر منها قائم بذاته يحكم في ذويه بحسب ما سن لم من الشرائع والاحكام · ومن ثم تضافرت هذه الاقطار فتضامت الى اكبرها فلم تندغم بها ولكنها شاركت في اظهارها بمظهر العظمة للنيابة عن الجميع

فاكبر حكوماتها هي دولة بروسيا والمنضمات اليها يبلغ عددهن احدى وعشرين حكومةً بين مملكة وامارة عَلَى اختلاف القابها — وانضامهن كان بمحالفة اتحاد يبقي لكل منهن شأنها المخصوص وعملها الداخلي لاتمتد اليه يد الحليف السائد

وسؤدد بروسيا بداء سنة ١٨٦٦ حين غلبت النمسا في الحرب فاستطالت وضمت اليها بلاد هانوفر وهس كسل وناسو · وكانت حكومة النمسا حتى يومئذٍ ذات حول وطول ومداخلة في شؤون المانيا فلما غلبتها بروسيا اضطرت ان تتخلى لها عن حقها في المداخلة فنشاء عقيب هذا التخلي تألب الاقطار الالمانيـة الواقعة الى شمالي نهر الماين ومن جملتها مملكة ساكسونيا وعقدت حلفة جعلت زعامتهـا لبروسيا وبقيت الاقطار الجنوبية واهمها باقاريا وورتمبرج وبادن ممتعـة باستقلالها الوهمي الا انها لم يطل عليها الامد حتى رأت من ضعفها وانفرادها بذاتها انها بين امرين اما الاتحاد مع بروسيا اتحاداً يسلبها شيئاً من استقلالها او الخضوع المطلق لفرنسا · ومن الغريب ان اهل تلك الديار كانوا يفضلون محالفة الفرنساويين عَلَى البروسيانيين ذلك كان حالهم يومئذٍ لانهم كانوا يكرهون ابناء جلدتهم البروسيان كل الكراهة وينفرون منهم · وهذا منتهى العجب · عَلَى ان اولئك الالمان الكارهين لاخوانهم مالبثوا ان اراهم بزمارك داهيـة سياستهم ان الامبراطور نابليون الثالث يضمر لهم شرًّا · اذ نشر بين ظهرانيهم اوراقاً سياسية اثبتت ان ذلك الامبراطور لزم الحياد اثناء الحرب بين بروسيا والنمسا عَلَى امل ان يحتز من جنوبي المانيا بقاعاً تكون ثمنَ حياده فلما انتشرت هذه الاوراق السياسية قامت لها تلك الاقطار الجنوبية وقعدت وعظم عليها الانحياز للسياسة النابوليونية فعادت الى بروسيا والقت بنفسها بين يديها

وجاءت الحرب الفرنساوية الالمانية مزبدةً في احكام الصلة لان وحدة المصلحة

مهدت العقبات فضمت المتخالفين وكأنها اضرمت شعلة الوطنية في قلوب الالمان فظهرت بمظهرها الهائل

وكان اليوم ١٨ من كانون الثاني عام ١٨٧١ مظهراً للحالة الجديدة . يومئذٍ كان ملك بروسيا كليوم الاول في فرسايل يحف به انصاره واعوانه من ملوك المانيا وامرائها المتجردين معهُ للحرب . فنادوا به امبراطوراً لالمانيا . واظهروا بهذه المناداة اتحادهم على احياء مجد امتهم بتجديد امبراطوريتها . عَلَى ان من اظهر الادلة عَلَى اتحادهم ان بعض امراء بافاريا سيما من آل وتلسباخ كانوا يحلمون بالامبراطورية عائدةً اليهم فلما عادت ولكن الى غير نصابها منهم ارتضوا برجوعها ولئن لم يرضهم خروجها من يدهم

ويالله من الاتحاد فان الالمان باجتماع كلمتهم وتآلب قوائم وما هي بالشيء القليل ظهروا للناس مظهراً فخيماً . يكفي في الدلالة عَلَى ذلك ان المكانة التي كانت لهم قبل اربعين عاماً صارت الان تكاد لاتذكر بالنسبة لما بلغت في حالتها الحاضرة فقد كانت التجارة ضعيفةً والصناعة في حكم العدم والحالة الاقتصادية من جراء ذلك واهنة القوى . وبالاجمال لم يكن لالمانيا اي لحكوماتها المتفرقة من عزةٍ الا مجندها فلما اراد الله لها خيراً بوحدتها جمع شتات قواها فاندفعت بما فيها من الجهد نحو التجارة والصناعة فما لبثت ان نالت بهما المكانة العليا وكادت تحرز السبق عَلَى الذين تقدموها . وتحسين حالتها الاقتصادية الى هذا الحد العجيب مكنها من البقاء عَلَى اطراد زيادة قواها في البر والبحر فصارت صاحبة الحول والطول في مضمار السياسة

فليس عجيباً بعد هذا التغيير والانقلاب الى العزة في كل شيء ان يجد كل واحدٍ من الالمان في نفسهِ ارتياحاً الى الوحدة فيزداد تمسكاً ويغدو راضياً مسروراً لايخطر لهُ العداء القديم ببال بل يبذل النفس والنفيس في الذود عن حياض دولته الكبرى القائمة عَلَى حفظ الجامعة الوطنية — ذاكراً ان امتهُ التي يرى دولتها الان ان بمظهر العظمة والمجد كانت قبيل وحدتها اي في سنة ١٨٦٠ حكومات شتى لاترتيب فيها ولا مبداء يجمعها ولا امل بالرقي يخامرها فيحييها ولكنها كلها كانت واقفةً وقفة الخائف الحاذر اما من النمسا او من فرنسا اما اليوم فقد صارت بفضل الاتحاد والوئام وكلها جسم واحد اذا مست الطوارئ طرفاً من اعضائه اهتز لمسيسه كل الجسم فظهر بقوته الهائلة مدافعاً عن نفسهِ واصبحت النمسا التي كانت تربع مجاوريها

من الالمان وهي الخليفة الطائعة لاعياء دولتهم وظهرت فرنسا العظيمة ساكنة الجأش بعد الحراك تخشى ان تسيء اليهم فينهضون كرجل واحد لمناوأتها · بل اعظم من هذا ان بريطانيا العظمى التي تدل بضخامة ملكها وعزة بوارجها واقتدارها على جمع قوة بحرية لاتجارى هذه الدولة صارت توجس من الالمان ان يناظروها بحراً لان اسطولهم آخذ بالارتقاء السريع بحيث لم يجد الانكليز من سبيل لحفظ مقامهم البحري الا بالاندفاع لزيادة بوارجهم وتعظيم قواها بحيث ينفقون عليها في كل سنة خمسين مليوناً من الجنيهات

على ان اتحاد الالمان لايستفاد منه انهم وحدوا حكومتهم ومناهجهم فاصبحت الاحدى وعشرين حكومة مندغمة ببروسيا بل تجد تلك الحكومات تعترف لبروسيا بالزعامة ولكنها تحكم اقطارها في زمن السلم بما اشترعت لها من السنن · فهي حكومات متحدة مستقلة في شؤونها الداخلية · فتجدن مثلاً ملك بافاريا ملكاً مستقلاً ناهضاً بجميع شؤون الاريكة حتى قيادة الجند في زمن السلم

اما الشؤون السياسية الخارجية فلا علاقة للحكومات الصغرى بها توّا لانها من خصائص وزارة الدولة الامبراطورية والندوة العليا التي يطلقون عليها بلغتهم اسم Bundesrat وثمت سنن متفق عليها بين الامبراطور والحلفاء تعين الحقوق والواجبات.

ولقد سبق فذكرنا في الجزء السابع من السنة الثانية من المباحث نبذة عن الحكومات الالمانية فلسنا الان لنعيد ما جاء فيها ولكننا نقول ان الندوة العليا عبارة عن مجلس الاعيان لان اعضاءها يمثلون حكوماتهم · وسبعة عشر او ثمانية عشر منهم ينوبون عن حكومة بروسيا وهم ينالون مناصبهم بامر الامبراطور فيكونون عاملين لاتمام رغائبه · ومثلهم تجد نواب الحكومات الشمالية كلهم يجرون على رضا البروسيان ويجارونهم في مناهجهم · فينال الامبراطور من جراء ذلك كلما يرغب فيه من الندوة

واما مجلس الامة ويقال له عندهم الريشستاغ Reichstag فتنتخب ذكورها الراشدين وعدد اعضائه ٣٩٧ رجلاً ينقسمون الى احزاب سياسية شتى الا ان الاحزاب لاتتخذ لها وسماً دينيا او وطنياً · فتجد ثمت البافاريـ الكاثوليكي الى جانب البروسياني البروتستانتي — وكلاهما من الاشتراكيين · ولنواب هذا المجلس راتب معين · غير ان نفقات الانتخاب باهظة قد تذهب بفائدة الراتب ضياعاً فيضطر الحزب الى ادائها من صندوقه ·

وللامبراطور حق تعيين رئس وزرائه الذي يطلقون عليه اسم المستشار الامبراطوري ولذلك لانجدن هؤلاء الوزراء يهتمون كثيراً باحراز اكثرية الاصوات في مجلس الامة على غير عادة وزراء سائر الدول الدستورية . وكم من مرة تقدم المستشار او غيره من الوزراء الى المجلس بلائحة لم تصادف من الاكثرية قبولاً الا ان رفضها لم يزعزع مركز الوزير ولا اثر في بقائه بمنصبه . بل قد يندفع الوزير الاكبر لمفاوضة الامبراطور في فض المجلس . واذا صدر الامر بفضه عاد حق الفصل لاحد عشر مليوناً من المنتخبين الذين يختارون نوابهم من محازبي الحكومة او من مخالفيها وكل لائحة اقر عليها مجلس النواب رفعت الى الندوة العليا فان اقرتها ايضاً لا يبقى للامبراطور الا التصديق عليها

على ان تمتع الامبراطور بالنفوذ المطلق في ادارة الحكومة مستفاد من حقه في تعيين الوزير واعضاء الندوة العليا . وفضلاً عن هذا فان للحكومة البروسيانية معتمدين لدى الملوك والامراء الذين تتألف منهم الخلفة الالمانية . ومن اخص واجبات هؤلاء المعتمدين ان يقنعوا من الحكومات التي يقيمون عندها على ما تأمر به نوابها في الندوة العليا وما تريدهم ان يعضدوا من اللوائح والاراء وان يسعوا عند اللزوم بحمل تلك الحكومات على جعل مناهجها ملائمة لما تريد الحكومة القيصرية وهذا يدل على ان اعضاء الندوة لا يعملون فيها بارائهم الذاتية بل بما يؤمرون به من حكوماتهم بحيث يكونون آلات صماء تديرها الحكومات على ما يوافق اهواءها ولا عجب والحالة ما ذكر ان تكون الندوة الالمانية غرقى في بحار الاريستوكراتية اي مبادئ الاعيان كما ان مجلس الرشستاغ عندهم متناه في المذهب العامي

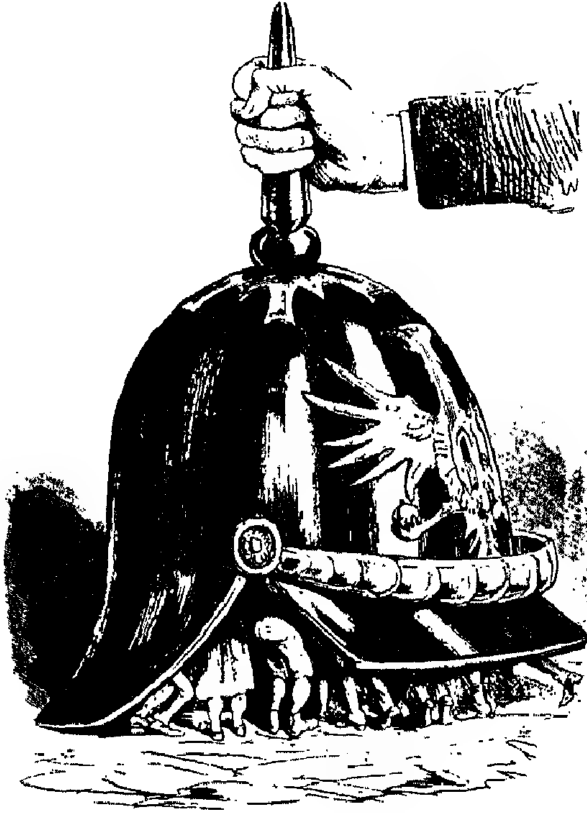
ومن حق الامبراطور ان يشهر الحرب بموافقة الندوة العليا ولولا المال والحاجة اليه في الحرب شديدة ربما لم يكن للامة من رأي فيه . غير ان الحاجة تدفع بالحكومة الى طلب تقرير النفقات . فيغدو المجلس النيابي وله في ذلك يد طائلة وقول مسموع

قلنا ان هذه الحكومات ممتعة بالاستقلال الداخلي ولكل منها مجلس نيابي يقال له عندهم لندستاغ . ومن غرائب ما يقال ان مجلس الرشستاغ اكثر ميلاً للاراء الحرة من المجالس الصغرى اللندستاغ

فقصارى القول أن المانيا العظيمة اليوم لم تكن قبل وحدتها شيئاً مذكوراً ولكنها لما اتحدت اجزاؤها واطرح اهلها اسباب الخلاف والجفاء وصاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضهُ بعضاً ساروا الى العزة والمكانة فسنموا ذراها . فهل نذكر نحن العثمانيين ذلك ونتحداهم في ما نهجوا لنبلغ مبلغنا من العلياء او نبقى على حالة تفرقنا وتنافرنا فيبقى ضعفنا وفقرنا الى ماشاء الله ؟



بسمارك



موحّد المانيا

د. محمد أمين فرشوخ

كانت الروح القومية الالمانية تعج في صدور الأحرار من أبناء المقاطعات والامراء وقد وقفت ظروف داخلية وخارجية في سبيل لحمة الأرض المقسمة قسراً وفي سبيل اتحاد شعوبها المتحررة من تاريخ وثقافة وتطلعات واحدة، وقد مثل بسمارك الدور الرائد في عملية الاتحاد هذا، واستطاع عبر صراعات سياسية وحربية أن يحقق حلم الالمان جميعاً وبجعلهم امة أقوى وأفعل في أوروبا، بل وفي العالم كله، وجعل عمله مثالاً يحتذى لرواد الوحدة، ونموذجاً للقيادي الداهية محقق أمنية شعبه في نيل حقه وتأكيد دوره في عالم لم يعد فيه مجال لضعيف أو منفرد أو انطوائي.

ما قبل الوحدة



في ٢ تشرين الثاني عام ١٨١٤ عقد أول اجتماع في فيينا لتسوية أوضاع اوروبا، فالتأم ثلاثماية سياسي اوروبي بينهم، عدا المستشارين، «مترنيخ» عن النمسا «تاليران» عن فرنسا «نسالرود» عن روسيا «كاسلري» عن انكلترا «هردانبورغ وهمبولد» عن بروسيا، وكان القاسم المشترك لقراراتهم استعادة السيطرة الفعلية على شعوبهم والقضاء على الافكار التحرّرية التي بدأت تذر قرنها بين جنباتها، وكان همّ «تاليران» من بينهم عودة النظام الملكي الى فرنسا، وقد استطاع تأمين ذلك بدهائه، لكن المجتمعين اشترطوا عليه أن يتقيد ملك فرنسا بقوانين وأنظمة خوفاً من انتفاضة «نابوليونية» جديدة تهددهم وحكمهم. أما ما خصّ المانيا من نتائج فقد اقتُرح لها مجلس يسمى «الديت» وهو مجمع يضم ممثلين عن الامارات الالمانية عقدت رئاسته دائماً لمندوب النمسا

د. محمد أمين فرشوخ. دكتوراه دولة في الآداب.

كـان الـوطنيـون الألمـان يتململون من تشـرذمهم ينتظرون فرصة مؤاتية ليتحدوا، وأتتهم حين تجندوا لصد نابليـون سنة ١٨١٣، لكن آمـالهم بالاستقـلال لم ترَ النـور، فقد قضت المعـاهدات التي وقعت سنـة ١٨١٥ بتجزئـة المانيا، وتساوى عندها الحكم القديم والجديد، وبقيت الروح القوميـة متحفّزة تنتظـر اللحظة الحاسمة، وربمـا الرجـل المناسب، اذ لم يكن فريدريك غليوم الثالث في بروسيا عند حسن ظن التحرّريين الوطنيين، ولم يجـر الّا اصلاحـات محـدودة، وكـذلـك في النمسـا، حيث كـان الامبراطور فرنسوا الأول يعتمد على مستشاره الداهية مترنيخ لمكافحة الأفكار التحررية، ناهيك عن ميـل اقلية تضمهـا البلاد - جـرمـان، سلافيين، ايطاليين، رومـان - الى الانفصال، وهكذا بقيت المانيا مقسّمة الى تسع وثلاثـين امارة تضم اربع مدن حرّة هي برام، لوبـك، همبورغ وفرنكفورت، ولم يكن الديت الّا وسيلة لاستمرار السيطرة النمسوية، وهـذه كلها من نتائج مؤتمر فيينا لمحاربة انتشار الروح القومية والاتحاد الوطني الحرّ.

كـانت النمسا هي المعـارضة الـدائمـة للوحدة الألمانية، تريد ابقاءها ممزّقة الشمل بل تعدّت المانيا، لينادي مستشارها ضد كل وحدة أو حركة تحررية في اوروبا، وهكذا بقي الاتحاد الالماني صورياً، ولم تتـحقق محاولة ١٨٤٨ أيضاً بسبب خوف النمسا والبلاد الاوروبية من قيام دولة قوية متحدة في وسط اوروبا تهدد تيجانها ومصالحها.

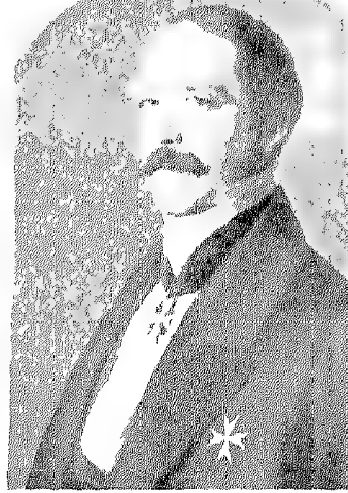
لكن محاولات الوطنيين البروسيين لم تكلّ، فقد استطاعوا جمع شمل سبع عشـرة امارة المانية في اتحاد جمركي سنة ١٨٣٨، في محاولة عملية على طريق الوحدة الكلية، وقويت بالتالي زعامة بروسيا فسهّلت اتخاذ باقي الاقطاعات الالمانية هذه الخطوة الابتدائية الجيدة، وكان الاتحـاد الاقتصادي تـوطئة لاتحـاد سيـاسي شامل، وتكريساً لقيادة بروسيا، وجاء تأكيد هذه الأمنية الوطنيـة بارتقـاء وليم الأول اخ الملك المتـوفي فريـدريك وليم الـرابع سنـة ١٨٦١، المتحمس للوحدة وصاحب التطلعات المستقبلية، وكان قوي الشكيمة، رأى أن القوة هي أفضل ما يؤدي لتحقيق مطمحه بل مطمح الألمان كلهم، لكنه لم يكن على وفاق تام مع سياسيّي بلده، ولبُعد نظره، وجد ضالته في شخصية تستطيع تجاوز العقبات، وتحقيق الوحدة، وجدها في سفير بـروسيا لـدى فـرنسـا «اوتـوفـون بسمـارك» فاستدعاه وعهد اليه برئاسة الوزارة.

بسمارك

لوالدين من النبـلاء، ولد سنـة ١٨١٥ «اوتو» وتدرّج في حياة ريفية ومدنية مستقلّـة اكثر الاحيان، وارثاً قسوة امـة ومزاج ابيـه الهـادىء السـاخـر، فكـان الاب راضيـاً عن تحصيل وحياة ابنائه بينما الأم الآمرة الناهية في البيت والاملاك - تقول له: «انظر الى من حولك واسمع ما يقال عن التربية المتينة تجد انه يعوزك امـور كثيرة قبـل ان تستطيع ان تـدعي انك رجـل مثقف» واندفـع اوتـوفـون بسمارك، الطموح جداً، اريستقراطي النـزعة، حاد الطباع احياناً، الى المطالعة واتقان المسايفة والسباحة، الى جانب الدراسة.. الى حين، اذْ في العشرين من عمره فضّل ان يمارس القانون في محكمة بلدية برلين هرباً ممن يدفعونه للدراسة العسكرية، فقـد جانبهـا مـع شغفـه ببزتهـا وأوسمتها ولم ينخرط في هذا السلك لاعتقاده ان «ذلك لما لا انتظره من ارتقاء في الجيش» فقد كان طموحه ابعد من ذلك بكثير. لم يكتف بثقافة المدارس والوظائف العامة الصغيرة - على حد تعبيره - فراح يسيح في البلاد ويتردد على اصدقاء كثر، وكان له جولات مع النساء فخطب مرات، ثم رجع لاملاكه يديرها كـ«سيد» دون أن يترك رغبته بالاستزادة من معرفة الناس، فكان يتصل مباشرة بخدمه وفلاحيه واهالي منطقته واذ اتت فرصة تشكيل اول «برلمان» بروسي في خطوة لتوحيد ولايات بـروسية الثمـاني حتى اندفع يقوّي مركزه في محيطه لينـال في سنة ١٨٤٧ مقعداً في «اللندتـاغ».. ودخـل عـالم السياسة.

«طُموح وذكاء سياسي، وإيمان أن الأمور قد تسير من سيء الى أسوأ قبل ان تتحسّن»، وكان تردّده على البلاط الملكي وجرأته في تحديد خطه ولو كان في مواجهة اكثرية انداده، يقوي


بسمارك الطالب سنة ١٨٢٦


... والسفير سنة ١٨٥٥.


والقائد سنة ١٨٧٧.

شوكته فانتدب منذ ١٨٥١ سفيراً في فرانكفورت ثم في بطرسبورغ ثم في باريس. فأمضى حياته منذ سن السابعة والثلاثين حتى الثامنة والأربعين وهو يؤسس ويمتّن علاقاته المحلية والدولية، مكتسباً الحزم أقوى ووضوح الصورة السياسية أفضل، وكان ديدبانه النفور من النمسا فهو لا يرى علاقتها ببروسية اكثر من «حلم شباب وتأثير المدارس» كان سفيراً مميزاً لا يسلك كغيره، حاضر الذهن يُحسّ المسؤولية فيبادر لخطط ومواقف تجلب الاعجاب، حتى انه كان يسدي النصيحة لمليكه، فيقبلها. كان يقول: «ما كان المالك القدير ليُدير أرضه بغير مساعد ذكي..» ولطموحه ورغبته بالسلطة - اذ كان ينفر ان يقوده احد الا الملك - كان يؤمن برضاه، ورضاه كان الطريق الافضل للوصول. وبعد ان اغرم ببلاط فرنسا وعُينّ سفيراً فيها سنة ١٨٦٢ بعد نقاشه المتصلب مع الملك الجديد كاد ان يشعر بالخيبة، اذ كان يتمنى ان يتسلم وزارة الخارجية التي يعتقد نفسه اصلح من يملك زمامها في ذلك الوقت العصيب، فحينها كان وليم الاول ابن الثلاث والستين سنة يصطدم بحلمه الذي يأبى عليه اعضاء مجلسه أن يتحقق: ثلاثون سنة وهو ينتظر ان يصل الى السلطة كي يطبق قانوناً جديداً للجيش في عدد وخدمته واعتدته، يجعله الاقوى في اوروبا، لكن موافقة اعضاء المجلس كانت تعوزه، وقد منعوها عنه لكلفة الخطة المالية الباهظة، فحنق الملك وكتب وثيقة تنازل لولي عهده، وهذا الأخير رفضها خوف الصدام مع الاقوياء في المجلس وأتى ذكر بسمارك فاستدعي، وقابل الملك... وتسلّم - في هذه المرحلة الصعبة - رئاسة الوزارة، بل تسلم السلطة الفعلية ليحقق أمله وأمل مليكه: وحدة المانيا بزعامة بروسيا.

مراحل الوحدة

(أ) **الاستعداد**: بسمارك، المفتون بمستقبل المانيا، آمن بسياسة مليكه في اعتماد القوة، والقوة تتجسّد أولاً بجيش وتحصينات منيعة وايضاً بمحالفات داخلية لتنظيم سياسة البلاط في جمع شمل شتات الآراء المتباينة، فالاستعداد للزعامة تلزمه تقوية الجبهة الداخلية على كل الاصعدة. فأكثر بسمارك من الاجتماعات وألّب الصحف ضد المناهضين في الوقت الذي كان يقيم فيه القلاع ويشيد الحصون على حدود البلاد، ناهيك عن مدّه للخطوط الحديدية واعتماده احدث طرق الاتصالات والتجهيز العسكري، وقد اضطر الى استخدام الشدة - وهو المعروف بقسوته وعناده - والضغط على اعضاء البرلمان لاعتماد التجنيد الاجباري ورصد ما يلزمه من اموال، وهكذا في وقت قصير كانت بروسيا على اتم الاستعداد لاعلان موقفها، بل لاعتماد تحرّك عملي في سبيل تحقيق مطمحها الكبير.



بسمارك «حدّاد» الامبراطورية الألمانية

(ب) ضم دوقيتي «هولشتين» و«شلزفيك»: كتب بسمارك مرة: «ان منهاجي الراهن في السياسة الخارجية هو كمنهاجي في غابر الازمان حين كنت اذهب الى صيد الدجاج البرّي، وحين كنت لا اتقدّم خطوة قبل ان اختبر التراب الذي امشي عليه فأعرف قدرته على حملي»، وهو ما دفعه لأن يعلن في جلسة برلمانية في اواسط سنة ١٨٦٣ اقتراحاً بضم الدوقيتين الألمانيتين اللتين تسيطر عليهما الدانمرك بموجب مقررات مؤتمر فيينا، واتماماً لتحضير الامر أخبر وزير خارجية النمسا الكونت رشبرغ انه سيقوم بانقاذهما، وهو امر تقرّه عليه النمسا لما له من صدى شعبي وتابع بسمارك انه سينقذهما في سبيل الدولتين، وبهذا «اقنع» اوروبا - لمرحلة - بالوقوف على الحياد، بل انتظار «مبارزة» النمسا وبروسيا في هذا العمل، وهكذا حشدت النمسا كتائبها الى جانب الجيش البروسي. وفي اواسط ١٨٦٤كانت الولايتان قد انتزعتا.. لكن ستنضمان الى من؟

(جـ) الصدام مع النمسا: كانت النمسا ترغب ان تجعل من تينك الدوقيتين المحتلتين دولة من دول الجامعة الالمانية كي لا تغدوا من أملاك بروسيا، وفي بروسيا كان الصراع لم يزل قائماً حول: أتسود القوة أم الحق، معضلة لم تجد حلّاً بعد، ويقوي بسمارك الذي ينال لقب كونت ويُنعَم عليه بوسام النسر الاسود، فيزداد تعالياً وسطوة، بل تأكيداً على مطمحه: «ان اقصى آمالي هو ان أجعل الالمان امة واحدة» ويصمم على منازلة النمسا، نابليون الثالث كان لا يزال منتظراً «المعركة» اعتقاداً منه انها تنهك قوى الدولتين، فوعد عندها بسمارك ايطالياً بمنحها مقاطعة البندقية وتهيأت الساحة، فتحدّى النمسا واتهمها بعدم التقيد بأحكام الاتفاقية في تسيير امور الدوقيتين.. فشهر الحرب في شهر حزيران ١٨٦٦ متحدياً البرلمان، وطغت العاطفة على العقل. لكن بسمارك اوقف قائده الكبير فون مولتكه عن متابعة الزحف حتى فيينا بعد انتصاره في «سادوروا»، وفي اوج هذا الانتصار استطاع ان يملي على النمساويين شروط معاهدة صلح اهمها بعد اخراج النمسا من المانيا ضم الدوقيتين الى بروسيا واقامة الحلف الشمالي بزعامتها.

(د) الحرب ضد فرنسا: ولم يبق سوى فرنسا، معارضةً دولةً المانيةً قويةً ومتحدةً، وكان بسمارك يرغب في حربها لارغامها على الرضوخ، وفي الجهة الاخرى كان نابليون قلقاً من ازدياد قوة بروسيا بعد انتصارها على النمسا. لكن متى الشرارة؟

يبدأ نابليون الثالث بمفاوضة فلورنسة وفيينا جدياً مؤلباً اياهما ضد بروسيا لتؤازراه في حربه، وبسمارك يثير الصحف في بلاده لتظهر اكثر سلاطة واقوى وعيداً، وحدث سنة ١٨٧٠ ان شغر عرش اسبانيا فترشح له قريب الملك وليم الاول «ليوبولد» وطبعاً عارضت فرنسا فاضطر وليم الاول الى الضغط على نسيبه لسحب ترشيحه، اذعاناً لطلبها، ولم تكتف فرنسا بذلك، بل طلبت من سفيرها مقابلته ليأخذ وعداً بعدم ترشيح احد من اسرة «هوهنزلورن» لهذا العرش، وبلغ الامر بسمارك والملك وليم في «إمس» فثار ورغب بتقديم

معركة «سيدان» أيلول ١٨٧٠.

استقالته لاعتباره ان ارتداد الملك ووعده اقرارٌ بضعف بروسيا، واذ تصله برقية من مليكه فيعدّل نصّها ليظهر ان الحكومة الفرنسية اهانت الملك وليم في طلبها الآنف الذكر، فيلهب الشعب البروسي وايضاً يظهر للشعب الفرنسي ان وليم الاول اهانهم برفضه استقبال سفيرهم. وارسل النص للصحف. اعلن بسمارك التعبئة العامة، فما كان من نابليون الثالث الّا ان شهر الحرب في ٢٩ تموز سنة ١٨٧٠.

وتغلب جيش بروسيا / ٥٠٠،٠٠٠ جندي على جيش فرنسا / ٢٥٠،٠٠٠ جندي واندفع البروسيون يحاصرون «ميتز» فتقدم نابليون شخصياً لفك الحصار عنها فأسر في سهول «سيدان» في ٢ ايلول، ولم يكتف البروسيون بأسره بل تقدّموا لمحاصرة باريس، فألقى عندها الفرنسيون السلاح وطلبوا الهدنة.

اقتطع بسمارك من فرنسا بموجب معاهدة فرنكفورت الالزاس واللورين وطلب خمسة مليارات فرنك ولم يترك باريس حتى استوفى آخر فرنك.

نماذج من كتابة بسمارك.
وهو في عمر ٣٠، ٤٥، و ٨٠ سنة.

(هـ) الوحدة: قال احد مساعدي بسمارك في يوم «سيدان» «من ارض الريخ (الالزاس واللورين) ولد الرّيخ (الامبراطورية الالمانية)»، وحقاً كان، فقد تقدم بسمارك هادئاً ليضم الولايات الالمانية الى الحليف القوي «بروسيا» بالاقناع خلافاً لرأي ولي العهد المنادي بقوة الامر الواقع والملك الذي فضّل الانتظار بعد. كان وليم الاول زاهداً بالتاج لكن سياسة بسمارك وخططه سهلت جمع آراء اعضاء البرلمان وايضاً تنازُل الامراء عن سيادتهم، بعضه كان مهزأة وبعضه كان صدقاً، لكن الاجتماع تم في ١٨ كانون الثاني ١٨٧١ في قاعة المرايا في قصر فرسايل ونودي بوليم الاول امبراطوراً، وكانت صلاة الشكر والولايات الالمانية «امبراطورية».

الامبراطورية الالمانية:

لقد حقق بسمارك الحلم الكبير، «اختفت» المانيا القديمة المشرذمة والمتحدة صورياً، اخلت محلها لامبراطورية متّحدة قوية، كما ارادها بانيها بسمارك تماماً. ولم يتركها، بل تابع واضعاً دستورها، مُخولاً الامبراطور سلطات مطلقة، يعاونه مجلسان: المجلس الاتحادي ويضم ممثلي حكام الولايات والبرلمان «الريشتاغ» الذي ينتخب الشعب اعضاءه. لقد قوّى بسمارك هذا الشتات الذي يدين بثقافة واحدة ولغة واحدة فجعله امة متراصّة تمكنت من لعب دور خطير في سير السياسة الاوروبية بل العالمية.

نهاية «الباني»

«لست الآن سوى كتلة من الاعصاب»، قالها بسمارك لأحد زواره سنة ١٨٩٣، وعاد المتقاعد الى الطبيعة التي عشقها دوماً، يجول بين معالمها مسترجعاً ذكرياته، لكنه لم يزل قاسياً، قال: لا أريد ان اسجن بعد مماتي في مكان مقفل، ذروا رمادي في الغابة، مع الريح، مع العاصفة، تحت الشمس، كما كان يُفعل بأموات ابطال الجرمانيين القدماء، وهو عندما كان يتنزه بين الاشجار كان يحيي فيها - «أجداده» - اصدقاءه الى الابد.



بسمارك في آخر ايامه، يتنزه في الغابة مع كلبيه

٢٩ تموز ١٨٩٨، لاحت سحابة الموت حول البطل العتيد، وقاوم لكن ابن الثلاث والثمانين عاماً ما كان ليستطيع منع النهاية المحتومة، كان يبتسم حين يفيق للحظات حين يستمع الى زمجرة العواصف في الخارج واصداء صخب الموج في الشمال: انها صورة لحياته الصاخبة القاسية. ولا يُعرف لما ردّد قبل وفاته بلحظات: «لكن المانيا.. مسكينة المانيا!» ترى ماذا كان يبصر من المستقبل قبيل اغفاءته الأبدية بلحظات، هل ابصر المانيا ١٩١٨ او المانيا ١٩٤٥، الله وحده يعلم. ■



الدكتور احسان عباس

من الذي سرق النار

خطرات في النقد والأدب

جمعتها وقدمت لها

الدكتورة وداد القاضي

الدكتور إحسان عبّاس

مَن الذي سَرَق النَار

جمعتها وقدمت لها د. وداد القاضي

صدر مؤخراً عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت (تشرين الأول ١٩٨٠) كتاب جديد بعنوان «من الذي سرق النار»، وهو يحتوي على المقالات والابحاث النقدية التي نشرها الناقد الكبير المعروف الدكتور احسان عباس، الاستاذ بالجامعة الاميركية في بيروت، في مجلات عربية متفرقة بين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٨٠. وقد قامت تلميذة الدكتور عباس، الدكتورة وداد القاضي، الاستاذة بالجامعة الاميركية في بيروت أيضاً، بجمع هذه المقالات والابحاث وتحريرها والاشراف على طباعتها، كما كتبت لها مقدمة نقدية تقييمية ننشر هنا القسم الأول - وهو الاكبر - منها.



دَرَجت العادة أن يكتب الأساتذة الكبار مقدّمات لكتب تلامذتهم، تعريفا وابتهاجا واستشرافا للمزيد؛ ولهذا أجد في نفسي بعض الحرج وأنا أقدّم مجموعة من كتابات أستاذي الكبير الدكتور إحسان عباس، الذي غمرني عبر السنين بفضله العميم وعلمه الجمّ وتوجيهه المستمر. غير أنه لشرف كبير لي حقا أن أقدّم هذه المجموعة من مقالاته في النقد الأدبي، كانت موزعة في المجلات الأدبية العربية المختلفة، وبعض هذه المجلات يعسر الحصول عليها، وبعضها لا يوجد إلا في أرشيفات المكتبات الجامعية، وكلها مما شارك به الدكتور عباس في بناء صرح النقد العربي الحديث الجادّ، فكان بذلك - منذ الخمسينات - مؤسساً لمدرسة في النقد ما يزال أثرها واضحاً حتى اليوم.

د. وداد القاضي. استاذة الأدب العربي في الجامعة الأميركية في بيروت.


د. إحسان عباس.

وقد رأيت أن أتحدث هنا عن بعض الخواطر التي عنّت لي عن إحسان عباس الناقد، وإن كان هذا أمراً غير سهل، لأن ما أسهم به يكاد يعزّ على الحصر؛ بين كتاب وبحث ومقالة ومراجعة، عالج فيها النثر والشعر، والأدبين القديم والحديث، في مدة تنيف على ربع قرن (١٩٥٠ – ١٩٨٠) وهي فترة من أشدّ الأوقات حرجا في تاريخ الأدب العربي الحديث، ولم يكن إسهامه قاصراً على ما نشره من البحوث والمقالات المكتوبة، بل تعدّى ذلك إلى المشاركات الشفوية في غير ملتقى أدبي، ومهرجان شعري، وندوة نقدية، وشمل أيضاً ما بثّه في نفوس طلابه الجامعيين، سنةً بعد سنة، من توجيه نقدي، وممارسةٍ للنقد، وتمرُّس به: ولئن كان الدكتور عباس لم يصرّح يوماً بحدود فكره النقدي وطرائق منهجه في النقد، مؤثراً في أكثر الأحايين أن يباشر النصّ الأدبي ناقداً دون أن يطرح نظرية ما، فإنه لَدَيْنٌ على من تتلمذ عليه، أن يحاول تبين الخطوط العريضة لهذا الفكر وذلك المنهج، وتلك محاولة لا بدّ أن تتمّ بأناةٍ وحذر، لعلها أن تكون فاتحة محاولات أخرى في هذا المضمار، في دراسة فكر نقدي نفّاذ عميق هادىء متواضع في آن معاً.

* * *

ولا ريب في أن إحسان عباس الناقد يدرك أبعاد حقل النقد الأدبي إدراكاً دقيقاً، وقد وصف النقد مرة بأنه «فعالية بَينيّة وَسَطية»، يعني بذلك أنه يحتلّ مكانةً وُسْطَى بين العديد من المتقابلات: بين الفن والعلم، وبين الفكر والأدب، وبين النصّ الأدبي والجمهور، إلى غير ذلك من متقابلات. من هنا كان على الناقد – من وجهة نظره – أن يكون قادراً على الجمع بين الموضوعي والذاتي، فيكتب بلغة «موضوعية» أقرب إلى لغة العلم والفكر منها إلى لغة الفن الصِّرف، لا لأن هذا الأمر متعلّق بصلب حقل النقد وحسب، وإنما لأن المهمة الأولى للناقد هي أن «يوصل» العمل الأدبي الفني إلى الجمهور، إذ قد يستغلق هذا العمل – كله أو بعضه – على الجمهور، فإذا كشف الناقد عن مواطن الجمال أو القبح فيه، وبين أماكن القوة أو الضعف لديه، وتغلغل في أعماقه مستنبطاً أبعاداً لم تكن مرئية ظاهرة منه، بات أشدّ وضوحا وبات الجمهور أكثر قدرة على تذوّقه وتقديره والاستمتاع به.

ومن أجل أن يكون الناقد موصلاً أميناً موحياً، لا بد له أن يتعرض بالنقد للأعمال الأدبية التي يرى نفسه متفاعلاً معها تفاعلاً كلياً، منسجماً مع ما تطرحه من عاطفة وفكر وتصوير انسجاماً تاماً، مقتنعا بأنه قادر على اتخاذ موقف فني فكري منها ابتداءً. وإذ يتخذ الناقد قراراً نابعاً من نفسه بأن ينقد قصيدة أو ديوان شعر أو مسرحية، أو غير ذلك، يكون قد غادر دائرة الموضوعية إلى دائرة الذاتية، وذلك أمر لا مفرّ له منه إذا شاء أن يكون نقده أصيلاً معبراً عن رأيه الفني الصريح الخالص.

والناظر فيما قدمه إحسان عباس من دراسات نقدية متعدّدة، يرى أنه كان أميناً لتصوره النظري للنقد الأدبي في مجال التطبيق، وكل دراساته النقدية مكتوب بأسلوب واضح، لا إبهام فيه ولا مداورة، وكلها يظهر فيها البعد عن المستغلق من التعبير، والطلب المتعمد لما لا بد أنه واصل إلى نفس القارىء وفهمه، من دون الوقوع في المبتذل المتداول. وإذا كان قد التزم دائماً حدود الموضوعية في الشكل النقدي، فإنه كان – في المضمون – أميناً للذاتية المطلوبة في العمل النقدي نفسه، وكل كتاباته في هذا المجال نابعة من اقتناع تام بأن العمل الأدبي الذي يخضعه للنقد يستحق النقد من وجهة نظره هو، إذ يجد نفسه يتفاعل معه فنياً

بشدة. ولم يخرج عن هذه القاعدة الدقيقة إلا في عمل واحد أو عملين من أعماله النقدية، وذلك حين كان يقوم بالعملية النقدية لا لداعٍ داخلي ذاتي فني صرف، وإنما لداعٍ خارجي – هو ذاتي أيضاً بشكلٍ من الأشكال – ينبع من «الواجب» الذي يحسّ به مواطناً فلسطينياً عليه إبراز ما في تراث هذا الوطن المغصوب من أدب فني.

ترى ما هي الأعمال الأدبية التي تجذب الدكتور عباس للكتابة فيها بدافع داخلي؟ ليس هذا بأمر يسهل التحقق منه، غير أن العثور على بعض «المفاتيح» عنه ليس أمراً مستعصياً، إذ إنه يرد في كتاباته بين الحين والحين ما يدل عليه. وفي هذا الصدد أجدني مستطيعة أن أشير إلى ثلاث قواعد كبرى تشدّه إلى العمل الأدبي، وهي: البعد الفلسفي، والبنية المزدوجة التركيب، والبساطة. فالقاعدة الأولى تعنى بالمضمون، والثانية بالشكل، والثالثة بالاثنين معاً.

لقد نصّ هو صراحةً في مقالة له عن ديوان «وحدي مع الأيام» لفدوى طوقان سنة ١٩٥٤ على تطلّبه للبعد الفلسفي في الشعر – والأدب بعامة – حين قال: «بل لعلّ الشعر الذي لا ينطوي على فلسفة عميقة ليس من الألوان المحبّبة إليّ»، وهو يعني بهذا أن الأدب الذي يستهويه هو الذي يقف فيه الأديب موقف المفكر من مشكلات الانسان عامة، وينقل هذه المشكلات – أو إحداها – بصور ومجازات فنية مميّزة للأدب عن الفلسفة، فيكون الأديب بذلك جامعاً للفلسفة وللفن معاً. لهذا كان الشاعر أو الأديب الحقّ – في نظره – «قريناً للفيلسوف»، لا يحرز عظمةً واضحةً إلا إذا كان عميق الإدراك لمشكلات الكون والإنسان، وعلى هذا الأساس فسر عَظَمة بعض كبار الأدباء العالميين من أمثال جوته وشو وطاغور وريلكه والمتنبي والمعري، وقال إنه مهما نعدّ من عناصر عظمتهم «فإننا لا ننسى أيضاً أن كل واحد من هؤلاء مفكّر على طريقته الخاصة، وأن له موقفاً محدداً من الإنسان ومشكلاته»؛ وأضاف: «بل لعلنا – لا شعوريا – نحكم لكل واحد من هؤلاء بالتقدم لأنه هو ذلك المفكّر المتعمّق. ثم يضيف قائلاً: «إن شرط البقاء لأي أديب مرهون به مفكراً، وإلا فلماذا خلد المتنبي وسقط مئات من الشعراء المعاصرين له الذين «أسَفُّوا مثلَ إسفافه في المبالغات الكلامية، وفي التحيُّل على الرزق العابر، وفي المدح المصطنع، وفي تبرير النقائص»؟.

ويقودنا هذا التطلُّب للفكر العميق في الأدب الجيد إلى القاعدة الثانية التي يراها ضرورية فيه، وتلك هي أن تكون بنية العمل الأدبي قائمة على ازدواجية ما من أي نوع، ينعكس من خلالها الصراع الدائر في نفس الإنسان أبداً، إذ الانسان – في رأيه – يتنازعه منذ الأزل وإلى ما شاء الله أمران: «الخوف من الموت والحنين إلى الماضي الذهبي السعيد»، وما دام العمل الأدبي الجيد يصوّر موقف الأديب من مشكلات الإنسان والكون، فإنه لا مفرّ من أن يلحظ هذا الصراع كامناً في مختلف صور الوجود الانساني وأن يتخذ موقفاً شعورياً فكرياً منه، دون أن يجد بالضرورة حلّاً له،واشكال هذا الصراع متعددة لا يحيط بها حصر، إذ قد تكون صراعاً بين القوة والضعف، والثورة والاستسلام، والحياة والموت، والمستقبل والماضي، والتقدم والتراجع، والرجاء والخوف، والواقع والحلم، إلى كثير غير ذلك، وكلها – فيما أقدر – مما عناه الدكتور عباس عندما حدد شَكْلي الصراع الكبيرين بالخوف من الموت والحنين إلى الماضي السعيد.

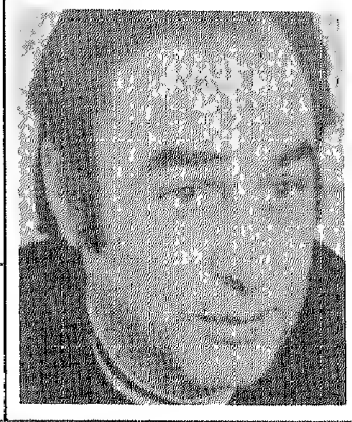
والناظر في هذه القاعدة في إحدى مقالاته المبكِّرة، لا يسعه إلا أن يلحظ فيها مسحة رومنطيقية كانت طاغيةً على فكره النقدي في الخمسينات وفي أوائل الستينات. غير أنه لا يسعه – أيضاً – إلا أن يرى فيها تعمقاً «وجودياً» عاماً في فهم الإنسان من ناحية، وأنه – من ناحية أخرى – قد أظهر منذ أوائل كتاباته النقدية تحيّزاً فكرياً إلى الجانب الإيجابي في الوجود الانساني، إذ نراه في أول كتبه النقدية – كتاب «فن الشعر» – سنة ١٩٥٣ يحلل بالتفصيل قصيدةً لذي الرُّمّة – الشاعر الأموي – يظهر فيها الشاعر الصراع الأبدي بين الحياة والموت، فينتصر للحياة من دون الموت؛ ونراه في سنة ١٩٥٦

يأخذ على الشاعر عبد الوهاب البياتي في ديوانه «أباريق مهشّمة» - (في كتابه «عبد الوهاب البياتي والشعر العراقي الحديث») - أن البياتي يميل في قصائده هناك إلى إبراز «الضياع» في شخصياته (مثل الملّاح التائه) وذلك أمر قد قاده - أي البياتي - إلى التعاطف التام تقريباً مع شخصية سيزيف الأسطورية - ممثلةً لضياع الجهد الإنساني - من دون التعاطف مع شخصية بروميثيوس الاسطورية - ممثلة للإصرار على استمرار الجهد الإنساني - النار - بغض النظر عن النتائج الوقتية، إذ لا بدّ أن يؤتي هذا الإصرار ثماره اليانعة في المستقبل.

ولقد كانت هزيمة سنة ١٩٦٧ الحادثة الأهمّ في توضيح موقف الدكتور عباس في هذا الموضوع، فخفتت في كتاباته النقدية النزعة الرومنطيقية وقوي نَفَسُ الانتصار لمنطق القدرة الإيجابية الكامنة في نفس الإنسان، حتى ليستطيع الإنسان أن يتغلّب على كل ما يهدّده من المصائب والمشكلات؛ ولعل ذلك عائد إلى أنه لم ير فيها سوى هزيمة مقرونة بمظاهرات ٩ و ١٠ حزيران ١٩٦٧، معتبراً أنه حتى الهزيمة تحوي في ثناياها إمكانات الأمل والبناء والإيجابية. ومن هنا اعتبر في مقاله «الاتجاهات الفلسفية في الأدب العربي الحديث» الثورة ملمحاً مميزاً للأدباء الذين خلّدهم الزمن، مثل أبي حيان التوحيدي وأبي العلاء المعري، وانتقد حليم بركات على تصويره تخاذل بطله وضَيَاعه في قصته «عودة الطائر إلى البحر»، ولم يستطع أن يتعاطف مع البياتي في حملته المسعورة على الأمة العربية كلها - بعد الهزيمة - في قصيدته «عيون الكلاب الميتة»، فيما لَمَحَ بصيصاً جميلاً بنّاءً من النور في شعر شعراء الأرض المحتلة في تقويمهم للتراث العربي - سلباً أو إيجاباً -، كما أنه - في مقالة لاحقة عن «لحظة الإبداع عند الشابي» - أبدى تقديراً خاصاً لأبي القاسم الشابي لما ظهر في شعره منذ سنة ١٩٢٣ من تجلُّد وقدرة على الصمود القوي في وجه الألم والمرض وإرهاصات الموت القريب.



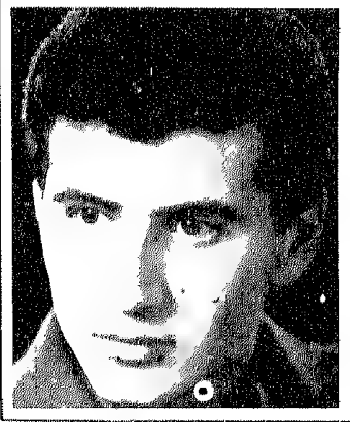
فدوى طوقان.



كمال ناصر.



محمود درويش.



سميح القاسم.

وعندما يحاول الدارس تطلب القاعدة الثالثة التي يراها هذا الناقد مرجوة في الأدب الجيد، فإنه سوف يراها مذكورة في أماكن عدة من كتاباته النقدية، وتلك هي قاعدة البساطة: وقد عبّر عن تفاعله الإيجابي مع مظاهرها في عدد من الأعمال الأدبية التي تعرّض لنقدها، فأشار إلى أنها ميزة ظاهرة في بعض أشعار

فدوى طوقان وإبراهيم طوقان وكمال ناصر وعبد الوهاب البياتي، ورأى أن قيام بعض شعراء الأرض المحتلة وأدبائها – مثل محمود درويش وسميح القاسم وإميل حبيبي –، وكذلك نازك الملائكة وبدر شاكر السياب، باستعمال التعابير الدارجة والأغاني الشعبية في أدبهم، أعطى هذا الأدب – رغم انبثاقه من البساطة – زخماً فنياً قوياً رفعه إلى مرتبة عالية في التعبير، ويزيد فيؤكد: إن استعمال هذه التعابير والأغاني لم يكن ليكون له هذا الأثر الفني النفاذ هنالك لو لم يأت ليخدم غاية فنية داخلية مطلوبة في قلب الأعمال الأدبية لهؤلاء الأدباء جميعهم، ولولا ذلك كله لما كان لتلك التعبيرات والأغاني أي قيمة في حد ذاتها، ذلك أن البساطة في نظره لا تعني التبسيط، وإنما تعني البعد عن الغموض والافتعال، والعمل الفني – في نظره – لا يكون عملاً جيداً ما لم تنحلّ كل المؤثرات الفاعلة في تكوينه انحلالاً تاماً في نفس صاحبه قبل أن يضعه في شكله النهائي، فإذا لم تنحل هذه المؤثرات ظل العمل الفني مفتعل التركيب غامضَ الدلالة، فإذا انحلّ أصبح بسيطاً واضحاً عميقاً معاً. وقد درس في كتابه «فن الشعر» قصيدة شوقي المشهورة في أبي الهول، فأظهر أن الشاعر افتعل تلك القصيدة، والشاهد على ذلك إنه جعل من أبي الهول فيها رمزاً لأمور متناقضة، ومن ثمَّ فقدت القصيدة البساطة – والعمق – المطلوبين في العمل الفني الجيد.

ومن المسائل المرتبطة بقضية البساطة مسألة الشكل في الشعر الحديث، وتلك مسألة كان لا بد له من أن يتعرض لها، نظراً للمحاولات التجديدية المتعددة التي أخذت بالظهور في شكل الشعر العربي الحديث منذ أواخر الأربعينات على يدي نازك الملائكة وبدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وغيرهم من بعد، تلك المحاولات التي تَحَدَّتْ عَرُوض الخليل، فرفضت التقفية معتبرة إياها قيداً يجرّ الشاعر إلى الافتعال اللفظي، ورفضت أيضاً التسوية بين شطري البيت، مفضلة – كما قالت نازك – أن يُترك التعبير حراً ينتهي بموسيقاه حيث يشاء، لا حيث يريد له



أحمد شوقي.

الشاعر – اضطراراً – أن ينتهي. وقد أبدى الدكتور عباس تعاطفاً شديداً مع محاولات التجديد الأولى هذه، ورأى أن نازك بالذات – بتجديدها – «أسلمت القصيدة العربية إلى مرونةٍ لم تعرفها من قبل، وخاصة حين أخضعت القافية لبعض الارسال والتصرُّف، فأضحى الوقوف على المعنى لا على الرنة الموسيقية الأخيرة هو الذي يتطلبه الشعر الجديد». غير أنه لم يغفل عن مخاطر التجديد، ولا عما يمكن أن ينتج عنه من أنواع سوء الاستعمال، وقد أشار في مقال له نشر سنة ١٩٥٢ إلى أن النزوع إلى التجديد قد يخرج عن حيّز الحاجة الفنية لدى الشاعر ليصبح إغراقاً في عبادة الشكل، وذلك عندما يقود تطلُّب الشاعر له إلى التحكّم في الانفعال بالانتقاء الموسيقي، كما أن هذا النزوع قد يخدع البعض ممن يظنون في أنفسهم طاقة شعرية أوّلية، فيعنون في شعرهم بالشكل المجدد وحده، معتقدين أن الشكل يصنع الشعر، وليس الأمر كذلك أبداً. ولذلك ميّز التجديد في شعر نازك وحذّر من انخداع البعض به في شعرها، مؤكداً أن التجديد في الشكل فيه لم يكن السبب قط في تميزها؛ قال: «إن التجديد في شعر نازك ليس مقصوراً على الشكل؛ وإجادتها في مذهبها ليست قائمةً على حدود التخلّص من التقفية والمساواة بين شطري البيت: هذه حقيقة لا بد أن يفهمها من يقلدون هذا الاتجاه وهم لا يتمتعون بما وُهِبَتْهُ الشاعرةُ من قدرةٍ فنيةٍ فَذَّة، وإرهاف عجيب، وتعمُّق لجوانب النفس، واستشعارٍ لخطرات الحلم، وإيمانٍ بحرية الفن وطلاقته».

وقد برهن الواقع فعلاً أنه كان على حق في توجُّساته من «سوء التصرّف» لدى فتح باب التجديد على مصراعيه، وشهد الشعرُ العربي الحديث منذ الستّينات عدداً كبيراً من الشعراء المغرقين في عبادة الشكل إلى درجة نفي أبسط العلاقات المعنوية بين الكلمات، كما شهد عدداً أكبر من مُدّعي الشعر الذين لا تزيد بضاعتهم الفنية عن القدرة على تحطيم الشكل القديم من دون الإتيان بأي بديل فني حقيقي يتجاوز اللعب بالأشكال، وبين هؤلاء عدد لا بأس به اتخذ من تحطيم الشكل القديم جوازاً إلى تحطيم التراث العربي كله.

* * *

حاولت فيما سبق أن ألقي الضوء على بعض القواعد العامة في فكر إحسان عباس النقدي من الناحية النظرية كما استنتجتها من كتاباته النقدية ومحاضراته الخاصة والعامة. ولا بد لي – استكمالاً للبحث – من أن أحاول استكشاف بعض المعالم العامة لطريقته النقدية في مجال التطبيق.

ولعل أفضل مدخل لهذا الموضوع هو النظر فيما كتبه سنة ١٩٦٦ في مقال له بعنوان «أبو ذَرّ في وجه الأزمات الثلاث»، قال:

«ولكن الشاعر الحديث ليس خطيباً؛ إنه يفزع – وهو ممتلىء الفم بالماء – إلى ريشته، ويغمسها في دم القلب ليكتب بها حقيقة ما يحس، وحقيقة ما يحسه شيء متعاقد متشابك متفاعل، يجمع عالماً من المفارقات والمتناقضات التي يريد أن يستخلص منها صورة منسجمة. فليس المطلوب منه صراحة الشمس السافرة في وقت الهاجرة. العلاقة بين الشمس والقصيدة ليست علاقة توهُّج محرق، وإنما هي علاقة تألُّق: كلتاهما تتألف من خيوطٍ وألوان، تُسَمَّى في حال الشمس ألوان الطَّيْف، وكلتاهما ضوءٌ مشرق نافع، قد تغشيه السحب دون أن تبطل حقيقته – إن القصيدة الحديثة أقرب إلى الطيف الذي انحلَّ إلى ألوانه السبعة منها إلى اللون الواحد الناجم من تألف الألوان جميعاً، بل ان من سر القصيدة الحديثة أنها تنحّل إلى الألوان المختلفة وتجتمع ألوانُها متآلفة في آنٍ معاً».

ويبدو هذا القول وصفاً للشاعر الحديث وللقصيدة الحديثة، ولكنه – في حقيقة الأمر – في صلب المنهج النقدي – إذ يتحدث عن الأديب الجيد والقطعة الأدبية الجيدة بغض النظر عن الزمن الذي كتبت فيه، كما إنه يلخص – وهذا هو الأهمّ في نظري – دور الناقد التطبيقي، كما يتصوره واجباً عليه هو نفسه ناقداً، فإن في أساس عملية النقد التطبيقي بالنسبة للدكتور عباس غوص الناقد في «العالم» الذي يخلقه الأديب في قطعته الأدبية، واكتشاف عناصره و «ألوانه» ثم تحليل هذه العناصر، ثم مزجها مرة ثانية، ثم تفسير ما يريد الأديب أن يقوله بها، في صورة «منسجمة»، تتفق والانسجام الذي أوحى به الأديب في عمله، وتستكشف الوحدة الكامنة في هذا العمل، خَلْفَ مختلف مظاهر التنوع فيه. إذ ذاك وحسب يستطيع أن يبدأ بنقد العمل الأدبي، ويكون عمله هو صورة أخرى من هذا العمل.

وينطلق الناقد وهو ينظر في العمل الأدبي الذي بين يديه من نقطة انطلاق رئيسية هي الإنسان أو المشكلة الإنسانية التي يطرحها هذا العمل. وأدوات الناقد لاكتشاف أبعاد هذه المشكلة متعددة، تتجاوز الموهبة والمراس والاطلاع والإيمان بالفن، إلى التعمق في مختلف العلوم التي تمسّ الانسان بمختلف الأشكال، وأهمّ هذه العلوم اثنان: علم النفس وعلم الأنثروبولوجيا الحضارية، إذ بالأول منهما يستطيع الناقد أن يفهم دقائق النفس البشرية بنوازعها التي لا تكاد تُحصى، وبباطنها فضلاً عن ظاهرها، ويستطيع أن يرى – بحق – أن القصيدة كالحلم في نظر علماء النفس: بناء ذو وجهين، ومهمة الناقد – كما يقول عباس في كتابه «فن الشعر»: «أن يحوّل انتباهنا عن السطح الظاهري ويتخلّل الأعماق إلى ما وراءه»، ويضيف قائلاً: «ولا بأس أن يستكشف أموراً لم تخطر للشاعر على بال». أما علم الأنثروبولوجيا الحضارية، فإنه يثقف الناقد في التجربة الإنسانية العامة الكبيرة عبر العصور، منذ أن وعي الإنسان ذاته فرداً مميزاً بين

المخلوقات، ويؤصّل في نفسه معرفة المعالم الكبرى في هذه التجربة، فيفهم ما يقوله فرويد عن عقدة أوديب، وما يقوله يونج عن نظرية التقدم والتراجع، وما يطيل الحديث فيه فريزر عن طقوس الخصب وأسطورة أدونيس وقتل الملك الإله عند البدائيين، وغير ذلك كثير.

هذان العلمان يصلان بالناقد إلى تقرير أمر أساسي وهو أن اللغة الأدبية - وخاصة لغة الشعر - هي لغة رمزية، تنساب فيها «التجارب الداخلية والمشاعر والأفكار - فرديةً كانت أو جماعية - وتبدو في الظاهر كأنها تجارب حسية أو أحداث من أحداث العالم الخارجي»، ولكنها مختلفة عن اللغة التي نستعملها في العلوم أو في لغة التخاطب، ولا نستطيع أن نفهمها إلا إذا تعمقنا ما تحت القشرة الظاهرية وتفرسنا في حقيقة التجارب الإنسانية التي جرى التعبير عنها. فالمعاني الهامة هي المعاني المختبئة، وبالكشف عنها. تظهر القيمة الحقيقية للأدب؛ ويقول أيضا: «ومهمة النقد أن يقرأ اللغة الرمزية... بعد أن يستعين بدراسة الأساطير والشعائر والحكايات الشعبية» والأحلام والمعجزات وغيرها.

كيف يشرع الناقد في النقد بعد أن يكون دخل عالم القصيدة متزوداً بنتائج العلوم التي تعنى بالإنسان، وبما لديه من خبرة وممارسة وموهبة؟ إنه إذا أراد أن يحتذي طريقة عباس في النقد - فيما أتصور - يحاول أن يدخل إلى عالم العمل الأدبي الذي بين يديه، ويستوعبه استيعابا كاملا، ثم يشرع في دراسة مختلف أشكال اللغة الرمزية فيه، من صور ورموز وأساطير وغير ذلك، ويحلّل هذه الأشكال المختلفة، كلاً على حدة أولَ الأمر، ثم مجموعةً معا فيما بعد، مفسراً كل شكل منها، ومحاولاً ربط تفسيراته لها مجتمعةً؛ فإن استطاع أن يكون من هذه التفسيرات وحدة متكاملة منسجمة، فإنه يكون قد أفلح في ترجمة العمل الأدبي، ولا يبقى عليه سوى أن يضعه بلغة الفكر ويقدمه لجمهور القراء؛ وإذا لم يستطع أن يكوّن من هذه التفسيرات وحدة متكاملة منسجمة، فإما أن يكون قد أخطأ في بعض تفسيراته، وفي تلك الحال عليه إعادة النظر فيها، أو يكون في العمل الأدبي نفسه خَلَلٌ ما، وليس بالإمكان خلق الانسجام في تفسيره بعد إذ لم يكن هو نفسه منسجما في ذاته.

تلك عملية تبدو سهلة إذ يصفها الدارس بهذه البساطة، غير انها معقّدة للغاية، تستغرق من جهد الناقد أكثر بكثير مما تستغرقه أعمال فكرية أخرى، قد تبدو للوهلة الأولى أشد صعوبة، ولعل ذلك راجع إلى أن النقد الجادّ المسؤول هو عمل فني فضلاً عن أنه عمل فكري، كما يراه عباس، وإخراجه إلى النور لا يخلو من العسر والمعاناة. ولقد طبق هذه الطريقة في النقد في كتاباته في الأدب القديم وفي الأدب الحديث - وفي محاضراته أيضا، والمجموعة التي يجدها القارىء بين يديه في هذا الكتاب خَيْرُ دليل على ما أقول. ■



الصحافة

- «إن نابليون مدين للصحافة بجيش مؤلف من ٣٠٠ ألف جندي».

مترنيخ

- «المال، المركز، الشهرة... كلها لا شيء أمام الصحافة التي هي كل شيء».

ر.كريميو

- «الصحافة تؤدي إلى كل شيء بشرط واحد هو أن نعرف كيف الخروج منه».

جول جانين

- ««عظيمة هي الصحافة، كل ناشر قادر على أن يكون حاكم العالم».

كارليل

الاقطاع الاسلامي

أصوله وتطوّره - دراسة مقارنة

د. ابراهيم علي طرخان

الحلقة الثانية

تلك هي أصول الاقطاع في الاسلام، ويلاحظ أن الفكرة نبتت لأول مرة في الدولة الاسلامية، خلال العشرة سنين الأولى من القرن الأول الهجري وأوائل القرن السابع الميلادي، وأنها لم تعد مجرد إجراء فرعي تنظيمي، لجأ إليه ولي الأمر، من بين ما لجأ إليه من نظم وتشريعات، كي يمنح بعضاً من الرعايا مساحات معينة من الأرض،

وبعد أن استعرض في الحلقة الأولى
مفهوم وممارسة الاقطاع النبوي
والخلفاء الراشدين للأراضي والمراعي والمعادن،
تختم الحلقة الثانية هذا البحث
المهم عارضة لمقابلة بين الاقطاع الغربي
والاقطاع الاسلامي ثم التحولات التي أصابت هذا الأخير حتى العصر العثماني.

إن ملكاً وان استغلالا، لأسباب ماثلة لديه، وهو في حل من أن يمنح أو لا يمنح، بل اعتبرت من الصدقة لفريق من المقطعين، وربما كان هذا المعنى هو الذي دفع المقريزي فيما بعد لأن يقول: «وإنما القطائع على وجه النقل من خمس ما أفاء الله»(۱). وهذا ما جعل للاقطاع الاسلامي صفة المنحة الشخصية، التي ظلت بارزة في الدولة الاسلامية خلال العصور اللاحقة، حتى في أقصى مراحل تطور الاقطاع الاسلامي ونضجه.



الاقطاع الغربي

ولما كنا بصدد دراسة الأصول الأولى للإقطاع الإسلامي، فلا مندوحة لنا من التعرض لأصول الاقطاع الغربي، وهذه يمكن أن يقال إنها تتفق مع أصول الاقطاع في الاسلام، من حيث دلالة الاقطاع اللفظية على مساحة معينة من الأرض يمنحها ولي الأمر لبعض رعاياه، مع اختلاف الدوافع والنتائج التي ترتبت على المنح في كل من الشرق الاسلامي والغرب المسيحي مع وجود التشابه الكثير في التفصيلات الفرعية لكل من النظامين. وأقدم أصول عرفت للاقطاع الغربي، هي الأحداث التي وقعت خلال العصر الميروفنجي في القرن السادس الميلادي بصفة خاصة، حين نشب نزاع حاد وحشي بين أبناء وأحفاد كلوفس (Clovis) نظراً لما جروا عليه من تقسيم الملك كارث خاص عقب وفاة كل ملك، ثم بين هؤلاء الملوك من الفرنجة وكبار الأرستقراطيين في القرن السابع الميلادي. نسلت هذه الأحداث الخطيرة، اختلالا في الأمن واضطرابا شاملا في المناطق الواقعة بين نهري الرين واللوار، قلب إمبراطورية الفرنجة ومسقط رأس الاقطاع الغربي، وزاد الأمر سوءا أن عجزت الحكومة إبانئذ عن حماية الأمن أو تأمين حياة رعاياها، مما أتاح الفرصة إلى ظهور ونمو فريق من الرعايا الأثرياء الأقوياء لجأ إليهم جيرانهم من مفتقدي الأمن وطلاب الدعة، فوجدوهم أجدى من الحكومة وأقرب منالا منها في تحقيق رغبتهم الحيوية. وفي نظير هذه الحماية، كان لابد من لقاء لها، أخذ هذا اللقاء صورة خدمات يقدمها أولئك اللاجئون، وكيفما كانت أهداف هذه القلة من الجيران الأقوياء، سواء أكانت للافادة من الفوضى السياسية الكائنة في تنمية قواتهم أو ثرواتهم، أو للقيام

لوحة تمثل احد الذين اقطعوا أرضاً يقدّم فروض الولاء للملك.



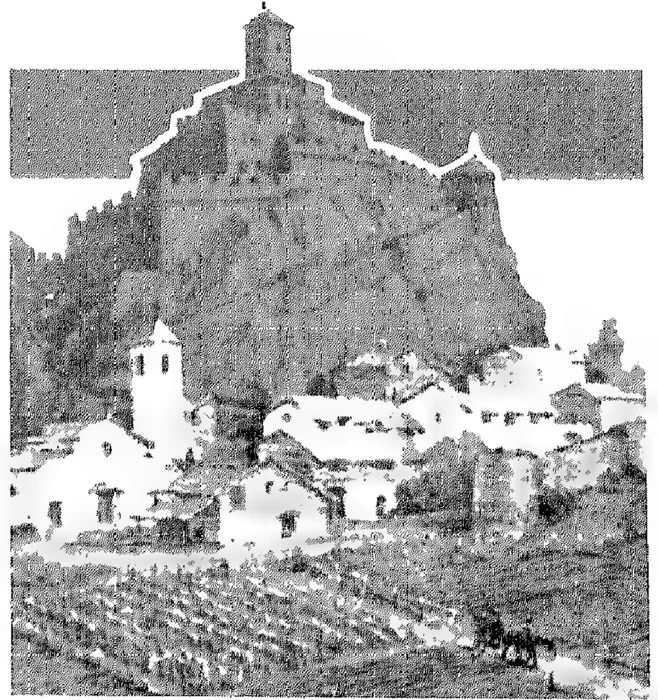
بدور سياسي، فقد احتاجوا فعلا إلى خدمات آخرين يرتبطون بهم شخصيا، ولم تكن هذه الخدمات المطلوبة سوى الأعمال العسكرية.

تطور فريق من الناس إذن إلى نوعين من تلقاء أنفسهم تحت الأحوال السائدة: سادة وأتباع، ويعتبر هذا التطور أقدم أصول للاقطاع الغربي ومن هنا جاءت كلمة «تابع» عن الأصل الكلتي (Cwas) بمعنى خادم أو ولد صغير، وصارت في اللاتينية (Vassus). أما أصول الأرض الاقطاعية التي توزع على أولئك الأتباع أو على الفلاحين، فترجع كذلك إلى هذا العصر الميروفنجي، وجاءت عن طريق تأجير الأراضي إليهم، وربما كان الأصل الأقدم راجعاً إلى عصر الرومان، في كيفية زراعة الأبعاديات الكبيرة في فلسطين مثلا وتسمى (Latifundia) أو المستعمرات الزراعية (Colonate)(٢)؛ بل إن الميروفنجيين منحوا قطعا من الأراضي على سبيل الهبة أو الرزقة (Beneficium) فأضحى الممنوح مديناً لكرم المانح وسخائه. وفي الحالات



القصوى ربما اعتبر التابع أو الممنوح الحر عبداً لحاميه أو مانحه القوى. غير أن الأمثلة على هذه الحالات سواء في الحماية أو المنح لم تكن من الكثرة في العصر الميروفنجي بحيث نقول إنها كانت منتشرة وشائعة قبل منتصف القرن الثامن الميلادي، كما أن ارتباط المنحة، بالتبعية التي تؤدي معنى القيام بخدمات معينة واضحة المعالم كان نادراً في تلك الفترة، ووضح هذا في العصر الكارولنجي خلفاء الميروفنجيين، حين احتاج بيبين الثاني (Pepin II) وشارل مارتل (Charles Martel) إلى مزيد من القوة الحربية فأكثرا من الأتباع ومنح الضياع، حتى يستطيع التابع تجهيز نفسه حربياً ولا سيما وأن الفارس في ذلك الزمن كان العامل الحاسم في الحروب، ومنحت تلك الضياع في أغلب الأحيان تمليكاً لا استغلالا، والملاحظ أن بعض هذه المنح كان من الأملاك الشخصية أو الميراث الشخصي لبيبن أو شارل، والبعض الآخر من الضياع الملكية (Fisci) أي الأملاك الخاصة بالملك بوصفه ملكا. وسار شارلمان على هذا النحو فكثر أتباع الأتباع (Subvassals)، بل صارت التبعية شرفاً؛ ولم يأت آخر القرن التاسع حتى غدت هذه الطريقة عامة. وخلال فترات الاضطراب التي اقترنت بالغزو الخارجي من جانب النورمان أو الصقالبة (Slavs) أو العرب أو المجريين بدت الحاجة ماسة دون صغار الملاك إلى التماس الأمن، ولما تعارضت هذه الحاجة مع حرصهم على الابقاء على منزلتهم الاجتماعية كرجال أحرار، لم يكن أمامهم سوى حل واحد بسيط هو دخولهم ضمن طبقة المحاربين المتازين (Qualified Warriors) التابعين لكبار السادة، بمعنى آخر ألجأوا أملاكهم إلى أولئك السادة ثم استردوها منهم ثانياً كاقطاع، وعرفت هذه العملية بالإلجاء (Feudalistion)(٣).

وفيما يتعلق بالمراعي في الاقطاع الغربي، فان استغلالها يتفق من بعض الوجوه مع استغلال المراعي في فجر الاسلام. إذ اعتبرها الاقطاع الغربي ملكاً عاماً (Common) لأهل القرى، فالمجتمع القروي في تلك العصور هو أكبر أركان الحياة كلها(٤). وهذا هو وجه


القلعة والمزارع حولها بحراسة الجنود.

الاتفاق، أما وجه الخلاف فانها تابعة للسيد في الاقطاع الغربي. ويتولى هو تنظيم استغلالها بين المزارعين التابعين له؛ ورغم أن مؤرخي الاقطاع في العصور الوسطى الغربية، قد فرقوا بين نوعين من المراعي: مراعي فقيرة وأطلقوا عليها كلمة (Pasture) وأخرى غنية بالحشائش والكلأ وعرفوها باسم (Meadows)؛ إلا أن استغلال النوعين يختلف من حيث إن كليهما يعتبر ملكاً للمنتفعين فبينما قام استغلال النوع الأول على أساس ارسال عدد معين من الماشية لكل زارع، قام إستغلال النوع الأخير على أساس تخصيص مساحات معينة أو حصص معينة لكل اسرة، تختلف سعة أو ضيقاً بحسب عدد أفراد الاسرة، أي ان المساحة تتناسب تناسباً طردياً مع عدد الاسرة، لأن العبرة في تلك العصور بالعدد وعموماً، اعتبر الاقطاع الغربي المراعي، اشتراكية قروية[٥]؛ وبمعنى آخر، تتفق تفاصيل الاستغلال للمراعي في المجتمع الاقطاعي الغربي مع نظائرها في الاسلام، أما إقطاع المراعي في الاسلام واستغلالها لحساب السيد الاقطاعي، فهذا ما حدث في عصر المماليك فيما بعد.

وبقيت أصول الاقطاع الاسلامي الأساس الأول الذي يركن إليه ولاة الأمور في المنح الاقطاعية التي أخذت بعد ذلك تنتشر منذ العهد الأموي فصاعدا، فظلت فكرة الاستثمار الاقتصادي مثلا، في إحياء الموات وتعمير الأراضي، وفكرة مكافأة العاملين في الاسلام ولا سيما رجال الجيش وهكذا.

إلا أن انتشار الاقطاع وتطوره فيما بعد، لم يستند إلى تلك الأصول فحسب، بل طرأت أوضاع جديدة على الدولة الاسلامية، ساعدت على هذا الانتشار، وأول هذه الأوضاع: تحول الخلافة إلى ملك منذ عهد معاوية بن أبي سفيان (١٠ – ٦٠هـ – ٦٦٠ = ٦٨٠م) ولقد استلزم هذا التحول الخطير استكثار الأنصار، وتكوين عصبة قوية لحماية ووقاية هذا النظام الجديد ومن ناحية أخرى لإقناع الرعية بما آل إليه أمر الحكم في البلاد، ولبلوغ هذا الهدف استأدى معاوية ومن جاء بعده، فيما استأدوا من وسائل وسبل، ظاهرة الاقطاع، للتمكين لأنفسهم وأسرهم؛ ودليل هذا المعنى واضح في الاقطاع الكبير الذي منحه معاوية للحسن بن علي، وذلك أثر تنازله عن الخلافة في ربيع الأول سنة ٤١هـ (٦٦١م)[٦]، ووضح أن معاوية إنما أراد بذلك، ألا يكون الحسن بن علي مركزاً تحاك حوله الدسائس، ودعامة للتهديد والمساومة، وفي هذا المعنى قضى معاوية لأسامة ابن زيد مولى رسول الله بأحقيته في إقطاعه الذي منحه من النبي وذلك حين تعرض له عمرو بن عثمان بن عفان وظن أنه يستطيع الاستيلاء عليه بحكم قرابته من الخليفة، ومن أقواله لأسامة: «كأنك تنكرني!» فأجابه أسامة؛ مدلا بولائه للرسول: «ما يسرني نسبك بولائي»؛ ولما اشتد الجدل، انقسم الحاضرون من هاشميين وأمويين إلى فريقين، فحسم معاوية الخلاف، وقطع الطريق على فتنة تكاد تعصف بعرشه، وقال: «لا تعجلوا، أنا كنت شاهداً إذ أقطعها رسول الله أسامَة»؛ فأقبل الأمويون على معاوية بعد انصراف الهاشميين يلومونه، فكان جوابه: «أكيس ما يقال في هذا الصدد: «دعوني فوالله

ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين، إلا لبس علي عقلي، وأن الحرب أولها نجوى وأوسطها شكوى وآخرها بلوى»(٧) تلك نظرة في استئداء الاقطاع خشية وقوع الفتنة وحدوث الفرقة، ولما يزال بعض المسلمين إن لم يكن أكثرهم، موتوراً من الوضع الجديد وطريقة حدوثه. بمعنى آخر جدّ عامل سياسي أثر في انتشار الاقطاع.

ويتلخص الوضع الثاني في اتساع رقعة الدولة الاسلامية، اتساعاً يمكن أن يوصف بأنه وصل إلى درجة التشبع، فأتاحت هذه السعة للخليفة أن يمنح ويكافىء في غير ضيق، بل حتمت عليه أن يتوسع في استخدام حقه في إقطاع القطائع؛ من ذلك ما استلزمته المحافظة على هذا الملك العريض من إقامة المعاقل والحصون التي عرفت في المصطلح «بالمسالح» ولا سيما على حدود الدولة وشحنها بالجند المرابطين والمثاغرين، ليكونوا على أهبة الدفاع، فمثلا عند بناء أبي جعفر المنصور لمدينة ملطية بأطراف آسيا الصغرى عام ١٤٠هـ (٧٥٧م)، أقطع الجند المزارع حولها، وكانوا نحواً من أربعة آلاف مقاتل، وهذا فضلا عن الرواتب وتزويدهم بالسلاح(٨). كذلك أقطع الفاطميون، العربان، فيمن أقطعوا بأطراف الشرقية، وأطلقوا على إقطاعاتهم «الاعتداد» بل إنهم أرصدوا للأسطول إقطاعات سموها «أبواب الغزاة».

ثم إن عملية التوسع نفسها وما تخللها من عمليات حربية، أدت بطبيعة الحال إلى اختلال الأمن وفقدان الطمأنينة، سواء في حدود الدولة من العدو الجاثم المترقب على الأبواب، أو داخل حدود الدولة نفسها من الصعاليك وقطاع الطرق، الذين يهتبلون تلك الفرص السوانح، فيغيرون على الوادعين والهادئين من ذوي اليسار وهم «التُّنَّاء» في المصطلح؛ في غمار هذه الأحداث برزت فكرة جديدة، جاءت وليدة الوضع الراهن، وظهرت تلقائياً، تلك هي فكرة «الالجاء» ومعناها أن يلجىء أهل القرية قريتهم بأراضيها إلى السيد القوي، قائداً كان أو أميراً، ثم يستردونها منه إقطاعاً، فيصبحون مزارعين له، وفي نظير ذلك يتولى هذا السيد الدفاع عنهم ضد عدوان قطاع الطرق أو غيرهم من الطامعين في أملاكهم أو من ظلم عمال الخليفة، الخلاصة: جاء الالجاء، وهو إحدى صور الاقطاع، وسيلة «للتعزز والحقارة» على قول البلاذري(٩). وأوضح الأمثلة على ذلك، ما حدث في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ = ٧٠٥ – ٧٥١م)، حين أقطع أخاه مسلمة بن عبد الملك أرض البطائح من أملاك كسرى، بجوار دجلة، فألجأ إليه جيرانه ضياعاً كثيرة للتعزز به، كذلك ألجأ أهل زنجان ضياعهم للقاسم بن الرشيد عند ولايته لجرجان وطبرستان، قصد التعزز به ودفعا لمكروه الصعاليك وظلم العمال وهكذا(١٠).

وثمة عامل ثالث في انتشار الاقطاع الاسلامي، وهو أن الثراء المفرط الذي صار للخلفاء، نتيجة الفتح وتكدس الغنائم، مكن لهم أن يبسطوا أيديهم كل البسط في الهبات الاقطاعية، على سبيل الجائزة أو المكافأة للأبناء والأقارب والموالي والغلمان والجواري وكذلك القيان والشعراء، والادلة على ذلك كثيرة، منها إقطاع المنصور لمولاه أبي الخصيب مرزوق، وإقطاع المقتدر للقهرمانة زَيْدان عدة ضياع(١١) وهكذا. يضاف إلى هذا ما أدى إليه انغماس بعض اولياء الأمور في الشهوات واللهو، وكثرة الصلات التي أغدقوها، من كثرة نفقاتهم وإسرافهم، مما حدا بهم إلى الطمع في الحصول على إقطاعات لأنفسهم بشتى الوسائل؛ وأبرز الدلائل على هذا ما فعله يزيد بن عبد الملك الملقب بالناقص، حين أمر عمر بن هبيرة ليسير على القطائع فيأخذ «فضولها لأمير المؤمنين»(١٢)، وما فعله بنو بويه ولاسيما بختيار ابن معز الدولة، إذ نفى كبار رجال الجيش من الديلم طمعاً في إقطاعاتهم(١٣).

هذا وشخصية ولاة الأمر أنفسهم، كانت كذلك من أكبر العوامل في انتشار الاقطاع، وذلك في حالتي القوة والضعف، إذ عمل القوي منح على استئداء الاقطاع لتدعيم سلطانه وتثبيت قواعد ملكه، كخلفاء الدولة الأموية وخلفاء العصر العباسي الأول وأوائل الفاطميين؛ على حين اضطر الضعيف فيهم إلى إشباع رغبات المتسلطين من الأعوان على اختلاف أجناسهم ومناصبهم، بل لم يستطيعوا أن



يعملوا غير هذا، فحاز أولئك الأعوان الاقطاعات الواسعة، وتصرفوا هم في المنح الاقطاعية لأنصارهم، أمثال ابن الفرات وأبي العباس وزيري المقتدر العباسي إذ حازا الاقطاعات الكبيرة فضلا عن الرواتب، وكذلك الوزير مُفلح الأسود - وزير المقتدر -، فقد «عظم أمره حتى أقطع الاقطاعات وملك الضياع الجليلة» على قول ابن مسكوية[١٤]. ويعتبر عهد المقتدر بارزا لأنه عمم إقطاع الولايات لكبار قواده، نظير قدر معين من المال يدفع لخزانة الخلافة عرف باسم مال المقاطعة أو الجزية على أن يقوموا بجميع نفقات الادارة المحلية، ومع التسليم بأن إقطاع الولايات حدث في العصر العباسي الأول، غير أن قوة الخلفاء أمثال المعتصم والواثق، قد حدّت من نفوذ الأتراك المقاطعين رغم تمكنهم من السلطة، والمهم فيما عمله المقتدر أنه عمم إقطاع الولايات بعد أن كان قاصراً على نفر محدود من كبار القادة، وزاد الأمر أن صارت هذه الولايات تؤخذ قسراً وتورث، ووضح هذا على مقياس أكبر، في عهد بني بويه؛ حتى أضحت الخلافة العباسية قرب نهايتها - في كثير من الوجوه - كما كانت أسرة هيو كابي (Hugh Capet) في بدايتها: أسرة إقطاعية وسط خضم من الولايات الاقطاعية. فلم يعد للخلافة سوى بغداد وبعض ضواحيها، وبلغ استبداد بني بويه أقصاه حين قصروا مهمة وزير الخليفة على النظر في «إقطاعاته ومقتات داره»[١٥].

ولم يكتف الولاة المقاطعون بحيازة ولاياتهم وتوارثها، بل أقطعوا فيها بدورهم لشيعتهم وأعوانهم، ووضح هذا منذ القرن الرابع الهجري، فمثلا أقطع محمد الأخشيد قواد جيشه ورجال حاشيته ومتصرفي الأعمال، ومن هؤلاء الأمير أبو شجاع فاتك الرومي المتوفي سنة ٣٥٠هـ (م) إذ كان له إقطاع كبير بالفيوم، وقد أقام فيه حين «أنف من عظمة خشداشة كافور»[١٦] كذلك اختلفت إقطاعات بني بويه لأتباعهم، فكانت عبرة إقطاعات أتباع فخر الدولة تتراوح بين ٢٠، ٣٠ ألف درهم لوجوه الديلم في منطقة الري وأعمال الجبل، على حين تراوحت هذه العبرة لجنود الديلم الخوذستانية بين ٢٠٠ و٣٠٠ ألف درهم. وهكذا[١٧]... بمعنى آخر: وجدت الاقطاعات الفرعية في الاسلام، ووجد السيد الأوسط (Medius lord) والسيد الأعلى (Over lord) والتابع أو المزارع (Tenant Vassal) وتابع التابع (Subtenant) أو (Subvassal) ولهذا نظائره في الغرب الاقطاعي، واستنصر الأتباع

بأتباعهم ضد السيد الأعلى، وساد الولاء من جانب أتباع الأتباع للسيد المباشر، كما ساد نظيره في الغرب باستثناء ما وقع في إنجلترا الاقطاعية على عهد وليام الفاتح، إذ اقتضى التنظيم القوي للاقطاع، أن يكون التابع الفرعيّ أو المُقْطع الأدنى في منزلة سيده المباشر(١٨).

الاقطاع الحربي

هكذا كان انتشار الاقطاع في الاسلام على اختلاف أنواعه وطرق حيازته وتباين حائزيه: من رجال الجيش إلى كبار الأعوان والأقارب إلى المقربين من الموالي والجواري وغيرهم، حتى كان أواخر القرن الخامس الهجري والحادي عشر الميلادي، حين حدث تطور خطير في المنح الاقطاعية إذ صارت حربية عامة، وغدت الطريق الوحيد للحصول على القوة الحربية الأساسية في الدولة؛ وربما التمس لهذا التطور الخطير أساس في فجر الاسلام، في توزيع الغنائم بين الغانمين ولو أن عمر بن الخطاب لم يقطع أرض السواد لتزايد القوة الحربية وخشية النزاع، ولكن بعد أن استطاب نفوس الغانمين(١٩)؛ ويرى الماوردي أن رجال الجيش «أخص الناس بجواز الاقطاع لأن لهم أرزاقاً مقدرة تصرف لهم مصرف الاستحقاق لأنها تعويض عما أرصدوا نفوسهم له من حماية البيضة والذب عن الحريم(٢٠).

على أن السبب المباشر في تعميم الاقطاع الحربي، هو ازدياد ضعف الخلافة العباسية، وسوء تصرف بني بويه في الاقطاعات، وما نجم عن هذا من بوارها، وضعف القوة الحربية في نفس الوقت، إذ لم يكن لها من هم سوى الحصول على الاقطاعات. من ذلك مثلا طالب الجند زيادة أرزاقهم من معز الدولة البويهي عام ٣٢٠هـ (٩٣٢م) فأمر بضرب المكوس وإقطاع جميع القرى والضياع لهم(٢١). لكنهم أهملوا استغلالها فخربت، وانحط خراجها، وأسوأ من هذا أنهم كانوا يتركونها بعد ذلك، فيعوضهم السلطان البويهي بأحسن منها من حيث يختارون(٢٢)، والنتيجة الطبيعية هي زيادة مساحات الأراضي المهملة وتناقص انتاجها؛ وذلك بجانب السوء الذي كان يلحق أهالي الاقطاعات من ظلم وحيف ومصادرات، اشتد الاضطراب وزاد الخلل على عهد بختيار بن معز الدولة، حين اتفقت كلمة الاتباع من الترك وغلمان القصر على ألا يعارض كل منهم صاحبه في «طلب الحظ لنفسه» مما أجبر السلطان على أن يضمن هم جميع ما التمسوه(٢٣)؛ كما أن العلاء بن الحسن أحد وزراء صمصام الدولة يوم عاد الى الوزارة عام ٣٨٢هـ (٩٩٢م) كان قلبه مفعماً بالغيظ والحقد بسبب ما لحقه وأهله على يد السلطان، «فأهلك دولته بأقطاع الاقطاعات وإيجاب الزيادات(٢٤)...» وهكذا، كان تصرف بني بويه في الاقطاعات .

نخرج من هذا الاستقراء الموجز لأحداث الاقطاع الحربي في ذلك العهد، بثلاث حقائق كبرى: أولاها: أن سلاطين بني بويه توسعوا فعلا في الاقطاعات الحربية أكثر من ذي قبل لكنهم لم يعمموه، إلا أن الحصول عليها من جانب الأتباع العسكريين غدا المطمع الأساسي دون نظر إلى استيفاء ما يقابلها من التزامات، وثانيها الحقائق أن أولئك السلاطين توسلوا بالمنح الاقطاعية لاسترضاء الأنصار خشية خروجهم وفتنهم كهدف أساسي؛ وخلاصة الحقيقة الأخيرة، وهي نتيجة منطقية للحقيقتين السابقتين، انتشار الفوضى وانحطاط عمارة الاقطاعات واختلال الميزان المالي بجانب انحطاط وفساد القوى الحربية نفسها.

لذلك بات إصلاح الحال مالياً وحربياً الهدف الأول لسلاطين السلاجقة الذين تولوا الحكم بعد البويهيين، والواقع أن السلاجقة خبروا الاقطاع الحربي وهم في خدمة بني بويه(٢٥) كما خبروا نتائج سياستهم ونواحي النقص في هذا الصدد، فرأوا أن يعمموا هذا النظام بحيث يحل محل العطاء للجند عامة؛ وكان عهد السلطان ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ – ٤٨٥هـ = ١٠٧٢ – ١٠٩٢م) ووزيره نظام الملك، مفرق الطرق في تعميم هذا النظام في دولة إسلامية عريضة تمتد من جنوب فارس إلى قلب آسيا الصغرى. يقول أحمد بن علي المقريزي: «واعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن يجني أموال الخراج ثم تفرق في الأمراء أو

العمال أو الأجناد، وعلى قدرتهم وبحسب مقاديرهم، وكان يقال لذلك في صدر الاسلام: العطاء، وما زال الأمر على ذلك إلى أن كانت دولة العجم، فغير هذا الرسم، وفرقت الأراضي إقطاعات على الجند، وأول من عرف أنه فرق الاقطاعات: الملك أبو علي الحسن بن علي بن العباس «وهو نظام الملك»، وزير البرشلان (ألب أرسلان) ابن داود بن ميكال بن سلجوق، ثم وزر أبو علي لابنه ملكشاه... وذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يسلم الى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل، على قدر طاقته لأنه رأى أن في تسليم الأراضي الى المقطعين، فيه عمارتها، لاعتناء مقطعها بأمرها، بخلاف ما إذا شمل جميع أعمال المملكة ديوان واحد، فان الخرق يتسع ويدخل الخلل في البلاد. فعل نظام الملك ذلك وعمرت البلاد وكثرت الغلات، واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين (وأربعمائة) إلى يومنا هذا[٢٦] (عصر المماليك).

هذا هو الحد الفاصل في الاقطاع الحربي في الاسلام. بعد أن أضحى النظام المعمول به. وأهم ما استرعى نظر نظام الملك. اختلال الحالة المالية والحربية، ولكي يجعل من الاقطاع الحربي نظاماً يكفل ولاء الجنود وخضوعهم وإخلادهم للعمل دون إتاحة الفرصة لمقطع «أن يكون قوة مناوئة في إقطاعه»، كان لابد له من تشريع آخر يقي هذا النظام ليؤدي الغرض منه. وجاء هذا التشريع الوقائي في تدبير حازم قوي، خلاصته بعثرة الاقطاع الواحد في أماكن متباعدة حتى لا يقوي المقطع بتركيز إقطاعه في مكان واحد من تكوين عصبية قوية تهدد كيان الدولة. يقول مؤرخ السلاجقة: «وربما قرر لواحد من الجند ألف دينار في السنة، فوجه نصفه على بلد من الروم، ونصفه على وجه في أقصى خراسان، وصاحب القرار راض»[٢٧].

ويتضح من هذا أن الأهداف ألتي قصد إليها نظام الملك من تعميم الاقطاع الحربي في الدولة السلجوقية، تلخص في ثلاثة:

١ - توفير المال اللازم بتعمير البلاد بعد خرابها على يد البويهيين.

٢ - توفير القوى الحربية المنظمة.

٣ - إيجاد شيء من اللامركزية لضبط أمور الدولة المترامية الأطراف مع التمكين للأسرة الحاكمة.

وتشبه هذه الظاهرة ما حدث في أوروبا المعاصرة يومئذ، إذ أن الفترة التي عمم فيها هذا النظام في الاسلام، تقابل عصر الفتح النورماني لانجلترا عام ١٠٦٦، حيث نظم وليام الفاتح الاقطاع الحربي بها، ولم يدخله، نظراً لوجود شبه كبير بين نظم المجتمع الانجلوسكسوني، والنظم الاقطاعية الفرنسية في القرن الحادي عشر الميلادي.

وقد .وفى وليام الفاتح نظامه على النحو الذي وفى به نظام الملك تشريعه لنفس الأهداف، فبعثر إقطاعات أتباعه، وأخذ عليهم من العهود والمواثيق ما جعل الاقطاع الانجليزي يختلف عن نظائره في بقية أوروبا ويقترب في كثير من التفاصيل من الاقطاع الحربي الاسلامي مع أن الاقطاع الانجليزي منقول من نورماندياً الفرنسية[٢٨].

على أن الاقطاع الحربي الاسلامي، لم يصبح عاماً بجميع الدول الاسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي، فلم تعممه الدولة الفاطمية في بلادها مع ما هو معروف عنها من كثرة الاقطاعات لجنودها وأمرائها[٢٩]، كما اختلفت طرق الانفاق على الجنود بالأندلس، فجرت أولا على إقطاع الأرض، ثم تغيرت إلى العطاء والرواتب ثم عادت الى الاقطاع وهكذا بحسب ما كان يرى ولي الأمر وجاء هذا التطور الأخير على أثر فتح الملثمين لبلاد الأندلس تحت قيادة زعيمهم يوسف بن تاشفين المتوفي سنة ٤٤٨هـ (١٠٥٦م)[٣٠] وفي مراكش على عهد بني مريرة المعاصرين للأيوبيين والمماليك، عرف الاقطاع الحربي كذلك.

أما الدول التي قامت في أحضان السلاجقة وعلى أنقاضهم وهي الدولة الزنكية ثم الأيوبية فالملوكية، فانتقل النظام الاقطاعي الحربي إليها كاملا، وكان أبو المحاسن دقيقاً في تعبيره عن هذا المعنى بقوله: «وأنشأ بنو سلجوق بني أرتق وآق سنقر جد بني زنكي، ثم أنشأ بنو زنكي، أعني الملك العادل نور الدين محمود الشهيد، بني أيوب سلاطين مصر وغيرها، ثم أنشأ بنو أيوب المماليك ودولة



الترك... فانظر إلى أمر الدنيا وكيف كل طائفة نعمة طائفة ونشؤها الى يومنا هذا...»[٣١].

ومما دعم هذا النظام وقواه، بقاء السلاجقة في حالة حرب طيلة أيامهم ضد البيزنطيين ومنافسيهم ثم بروز الخطر الصليبي أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وظهور الخطر المغولي وامتداده منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي.

ولأول مرة في تاريخ مصر توزع أراضيها اقطاعات بين السلطان وجنوده، منذ العهد الأيوبي، يقول المقريزي: «وأما منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا، فان أراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده...[٣٢]».

والأمثلة على التوزيع الاقطاعي الحربي كثيرة. منها إقطاع ملكشاه السلجوقي منطقة الرها للأمير بوزان التركماني، وبلغت عبرة إقطاع الأمير أحمد يلل الكردي في المراغة بأذربيجان ٤٠٠,٠٠٠ دينار في السنة[٣٣]. ومن كبار أمراء الاقطاع وأعيان دولة ملكشاه: آق سنقر الملقب بقسيم الدولة، وهو أبو عماد الدين زنكي، فقد شمل اقطاعه قلعة حلب وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية ولواحقها[٣٤] كما أن ابنه زنكي كان أقوى الاقطاعيين في عصره، إذ

شملت دولته الاقطاعية ما بين حلب والموصل(٣٥) وصار هو يقطع أتباعه ولا سيما وأن الجهاد ضد الصليبيين كان على أشده في تلك الفترة، فاحتاج إلى تدبير القوة الحربية اللازمة، واستعان بكل قوة تخدم أهدافه، فلما وفد عليه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ١١٣٨م أقطعهما، فأخذ نجم الدين شهرزور وهي السليمانية الحالية (شمال العراق) وأخذ أسد الدين بالموزر(٣٦). وهكذا سار خلفاء زنكي. فأقطع نور الدين رجال جيشه ومن بعده الأيوبيون الذين وزعوا مصر كلها بين السلطان وجنوده. ■

الهوامش

(١) خطط ج١ ص١٥٦.
(٢) (Lot (f): the end of the ancient world &the beginning of the Middle Ages (lond, 1931); pp.107-114)
(٣) (Canshoff; Feudalism; pp.16-23 Orton (C.W): Outlines of Med. Hist. (camb., 1924); p.112; C.M.H.
(٤) كوبلاند: الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا (ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة) ص٥ – ٧.
(٥) (C.M.H. Vol.III; pp.473-475)
(٦) التنبيه والاشراف ص٣٦٠.
(٧) مروج الذهب ج٢ ص٥٥.
(٨) فتوح البلدان ص١٩١.
(٩) فتوح البلدان ص٣٢٤ – ٣٢٥.
(١٠) فتوح البلدان ٣٠٦ – ٣٠٩، ٣١٩، ٣٢٤ – ٣٢٥.
(١١) فتوح البلدان ص٣٥٦، تاريخ الوزراء ص٣١.
(١٢) فتوح البلدان ص٣٥٩ – ٣٦٠.
(١٣) تجارب الأمم ج٦ ص٢٣٥ – ٢٣٧، تاريخ ابن خلدون ج٤ ص٤٣٥.
(١٤) تجارب الأمم ج٥ ص٧٨.
(١٥) تاريخ ابن خلدون ج٤ ص٤٣٥، (Dutaillis: Feudal monarchy in france & England. p.4000; Orton (p.):
(١٦) النجوم الزاهرة: ج٣ ص٢٥٥، ٣٢٩ – ٣٣٠، ج٤ ص٤ – ٥.
(١٧) ذيل تجارب الأمم ص١٦٤ – ١٧٠، تاريخ ابن خلدون ج٤ ص٤٥٥.
(١٨) (C.M.H. Vol.III, p.463; Stephenson (c.): Med. Hist.; pp.238-239.
(١٩) أنظر ماسبق ص١٢.
(٢٠) الأحكام السلطانية ص١٨٦.
(٢١) تجارب الأمم ج٦ ص٩٧.
(٢٢) تاريخ ابن خلدون ج٤ ص٤٣٥.
(٢٣) تجارب الأمم ج٦ ص٢٢٥ – ٢٢٧.
(٢٤) ذيل تجارب الأمم ص٣٤٧.
(٢٥) النجوم الزاهرة ج٥ ص٢٧٩.
(٢٦) خطط ج١ ص١٥٣ – ١٥٤.
(٢٧) الأصفهاني (الفتح بن علي): دولة آل سلجوق ص٥٥ – ٥٦.
(٢٨) Dutaillis: P.P.37- 51- 61 steuton PP. 7-10 Stubles P.P.109.
(٢٩) خطط ج١ ص١٣٨، ج٢ ص٣٤٠، كرد علي: الاسلام والحضارة العربية ج٢ ص٢٨٥ – ٢٨٦.
(٣٠) المعجب ص٣٣ – ٤٠ ومابعدها. (Dozy: hist. des Mus. p.322 et sues).
(٣١) كرد علي: الاسلام والحضارة العربية ج٢ ص٢٧٣.
(٣٢) النجوم الزاهرة ج٥ ص٢٧٩.
(٣٣) خطط ج١ ص١٣٩ – ١٤٠.
(٣٤) الروضتين ص٢٥ – ٢٦، النجوم الزاهرة ج٣ ص٨٤ وهامشه ٣ج٥ ص١٢٤ – ١٢٥، ١٢٨، ١٣٠، ١٥٥، ١٦٣،
(٣٥) الروضتين ص٢٧ النجوم الزاهرة ج٥ ص١٢٥، ١٤١، وغيرها.
(٣٦) الروضتين ص٢٦ – ٢٩.
(٣٧) شفاء القلوب ورقة ٤، ابن شداد ص٢٦٠، النجوم الزاهرة ج٥ ص٢٧٧ وغيرها، الروضتين ص٩٥ – ٩٦ وغيرهما.



سورتسي..
مَولِدُ جزيرةٍ جديدةٍ

ترجمة: شذا عدرة
ماجستير في التاريخ الحديث



تقع أشد جزر العالم غرابة جنوبي غربي ساحل ايسلندا. فقد صرّح من شاهد مولدها، بأن ذلك كان أشبه بعملية الهبوط على القمر. وهي عرفت بجزيرة «سورتسي - (Surtsey)» نسبة إلى بركان «سورتو - (Surtur)» مارد إيسلندا الناري الأسطوري الذي تفجر في عرض البحر فتولدت عنه «الجزيرة الأعجوبة».

في الصباح الباكر لأحد أيام شهر تشرين الثاني (نوفمبر) المظلمة من عام ١٩٦٣م، وبينما كان طاقم «إيليفور الثاني» (Isleifur II) أحد مراكب الصيد قد انتهى لتوه من رمي الشباك إلى الغرب من «غيرفريغلاسكر» (Geirfriglasker) القائمة في أقصى جنوب جزر «فستمان» (Vestmann)، ابتدأ قاربهم يهتز بعنف ويترنح فوق موجة عاتية، فنظروا بدهشة



صيادو مركب ايليفور الثاني يراقبون بدهشة واستغراب انفجار المحيط البركاني الذي أعطى الحياة لسورتسي.

إلى الجنوب حيث مصدر الاهتزاز، فشاهدوا طبقة كثيفة من الدخان تتصاعد من البحر. وما كان الذي يشاهدونه سوى آلام المخاض التي سبقت ولادة أكثر جزر «فستمان» (Vest-mann) حداثة.

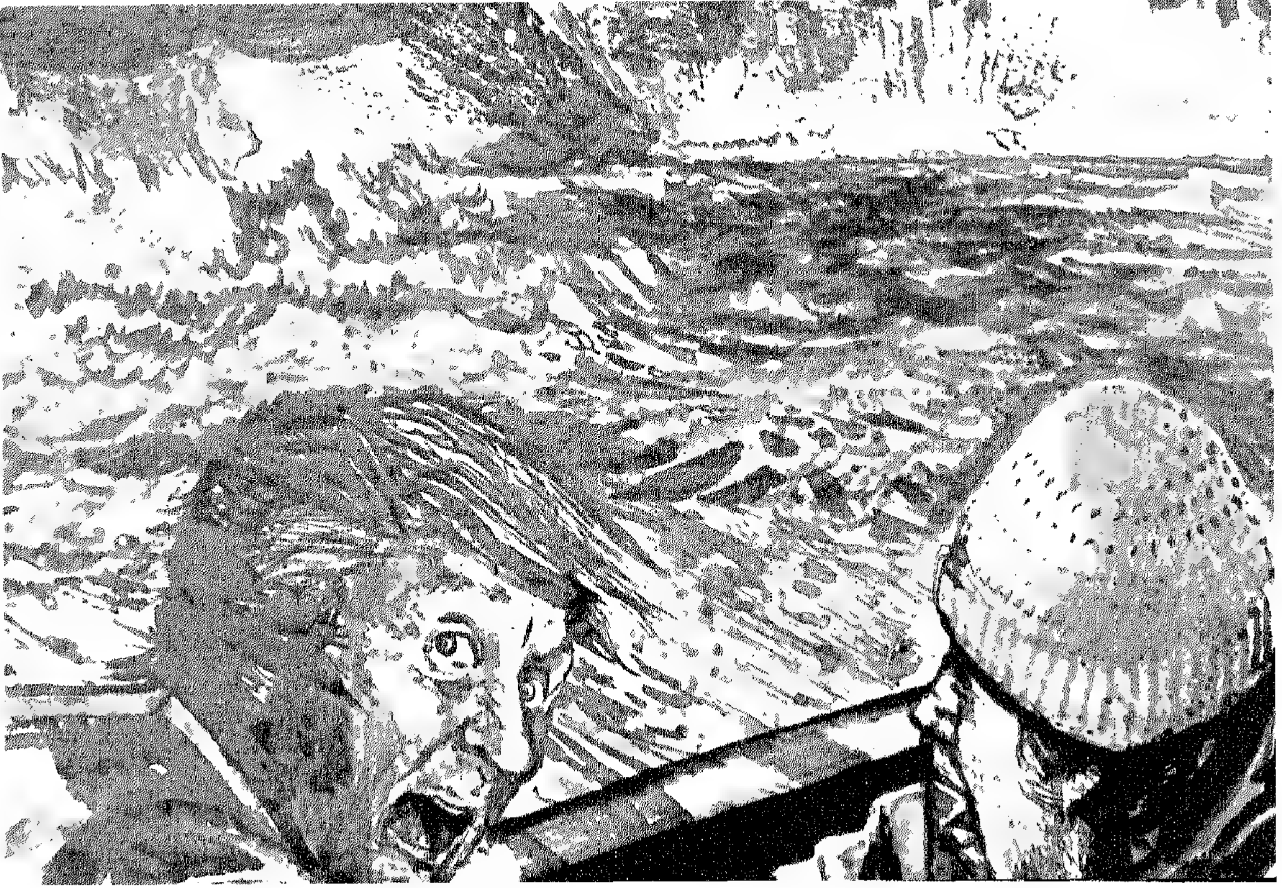
كان الانفجار في بدايته مليء بأعمدة الدخان والأبخرة والرماد وقطع الصخور وقد بلغ ارتفاعها في الهواء مئات الأمتار، ولكن بعد مرور ثماني وأربعين ساعة ابتدأت تظهر على سطح البحر سلسلة تلال مشيرة بذلك إلى ولادة «سورتسي» (Surtsey) الجزيرة الجديدة.

قذف البركان في بداية مراحل انفجاره الكثير من الحجارة والحمم والقطع الزجاجية البركانية التي ما لبثت أن تجمعت جميعها مؤلفة بذلك فوهته التي كانت معرضة للانجراف بفعل مياه الأمواج العاتية. فبدا للوهلة الأولى بأنه لن تكتب الحياة الطويلة لتلك الجزيرة.

ولكن ظهرت بعد مضي ثلاثة أشهر، وعلى مسافة قريبة من الفوهة الأم، فوهة أخرى كانت تتدفق منها سيول الحمم لتغطي أكداس الحمم السابقة وتشق فيها القنوات. ومن ثم ما لبثت طبقات الحمم الرخوة أن أخذت في التماسك والتراص لتدخل مرحلة التجمد ولتؤلف حصناً مكيناً في وجه أمواج البحر العاتية، «فسورتسي» (Surtsey) على ما يبدو، قد جاءت لتبقى.

خفّت في عام ١٩٦٧م. حدة انفجارات الجزيرة الجديدة، التي ما لبث تكوينها الطبيعي أن استقر بصورة فجائية. وقد أصبح لدى العلماء الذين كانوا قد نجحوا حتى ذلك الوقت بإثارة فضول الغرباء بزيارة ذلك المكان ومشاهدة الرماد الأسود يغطي الشواطىء، أصبح لديهم الآن مخبر طبيعي لدراسة كيفية تطور مراحل الحياة.

حملت تيارات البحر المائيةمن إيسلندا – الأرض الأم – خلال العشر سنوات التي تلت الانفجار، الكثير من البذور إلى «سوربسي» (Surtsey) ، كما حُمل بعضها في حقائب «حوريات البحر» من أكياس بيض لأنواع معينة



من الأسماك وطيور الفلمار وطيور القطب الشمالي وأنواع أخرى من الطيور التي حطت رحالها جميعاً هناك وهي تحمل البذور في أرجلها.

وقد نقلت الريح معها أيضاً إلى هناك بذور عشب الطحلب من طبقات الطمي الكثيفة في إيسلندا، بالاضافة إلى أن فيضانات الجداول والينابيع التي تصب في البحر كانت تحمل معها الطبقات العليا من التربة المشبعة بالماء والمشتملة على العشب وجذوره إلى جانب الديدان ويرانق الحشرات.

وجدت جميع تلك العناصر التي تحمل الحياة بداخلها ملجأ لها في «سورتسي» (Surt-Sey) لكي تنمو وتتكاثر. فإبتدأت الأعشاب والطحالب ومظاهر الحياة الأولى تنمو بقوة فوق الرماد الأسود. وقد كان يسجل كل مظهر جديد من مظاهر النمو، ومن ثم يعين موقعه على خرائط بواسطة علماء ارتدوا لهذه الغاية ثياباً خاصة واقية لهم من أي وباء خارجي.

من المتوقع أن تصبح «سورتسي» (Surt-Sey) يوماً ما خضراء مزدهرة كأي مكان آخر على وجه البسيطة، ولكن لا يعلم أحد كم من الوقت سيستغرق هذا الأمر؟ فلربما مئات أو آلاف السنين!! وربما في ذلك الوقت سيدمرها نشاط بركاني آخر كالذي أحياها من قبل. وذلك لأن أرض إيسلندا تشكل نقطة عالية من سلسلة جبال تمتد على طول المحيط الاطلنطي من الشمال إلى الجنوب، ويعتقد بأن القوى البركانية هناك تقوم بتمزيق تلك السلسلة تدريجيا وتفصلها عن بعضها البعض.

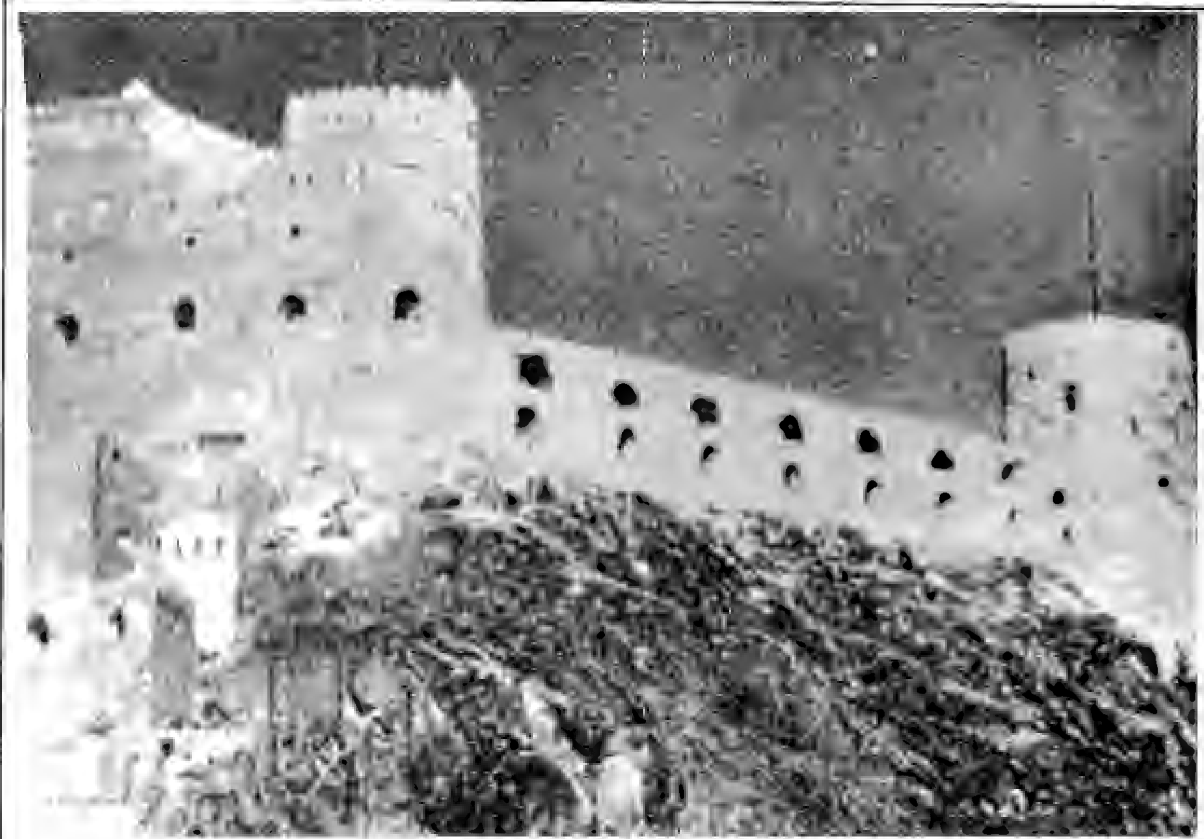
ولكن في مطلق الأحوال، فلقد أعطتنا الجزيرة الجديدة إثبات آخر عن مدى فعالية القوى الخفية تحت سطح الأرض وعن مدى قوة تأثيرها على سطح كوكبنا. كما أنها قد أعطتنا دروساً قيمة عن كيفية تجمع العناصر الحية لكي تنشىء فيما بينها مجتمعات جديدة.

وأخيراً، فلقد أثبتت «سورتسي» (Surt-Sey) بأن الحياة هي أقوى بكثير من أن تقمع.

المرجع: — (John Sanders) (The world's Greatest wonders). P.P. 24—27 ■

الإمام ناصر بن مرشد اليعربي وتحرير عمان من البرتغاليين

أحمد يوسف عبيلي



قلعة الميراني، بناها البرتغاليون وهي آخر موقع دافعوا عنه.

لعمان طبيعة جغرافية، فهي عبارة عن منطقة تحيط بها الصحاري الواسعة المقفرة من ثلاث جهات، ويحدها البحر من الجهة الرابعة. وتمتد في البلاد سلسلة جبال الحجر الشديدة الوعورة. ولقد أدى هذا الوضع الجغرافي الى أن ينظر العمانيون الى البحر كمورد رزق، فاستغلوا موقع بلادهم على الحدود الشرقية لينشطوا كملاحين فوق أرجاء المحيط الهندي الفسيح. ولقد كانوا المبرزين في هذا المجال غير أن الوضع قد أدى الى انعزالهم النسبي عن بقية ارجاء الوطن العربي. ولقد وجد المذهب الاباضي ملجاه في عمان وشاركهم في هذا المذهب بعض العرب من أهالي المغرب. وحينما قدم البريطانيون وسيطروا على عمان حاولوا ان يجعلوا من عزل عمان منهجاً ثابتاً لهم.

ولقد أدت هذه العزلة النسبية الى عدم تمكن المواطن العربي وفي احيان كثيرة المثقف العربي من الاطلاع وبشيء من التفصيل على مسار التاريخ العماني. وسنروي هنا باختصار سيرة أحد الأبطال العمانيين الذين ساهموا بتحرير عمان من السيطرة البرتغالية، فاحتل موقعاً نضالياً قومياً جنباً إلى جنب مع كل ابطال الامة العربية. تلك هي سيرة الإمام ناصر بن مرشد اليعربي.

عمان قبل مجيء الامام ناصر بن مرشد:



لا يزال تاريخ عمان في الفترة التي سبقت مجيء البرتغاليين غير واضح. ففي هذه الفترة وقعت البلاد ولمدة قرون تحت حكم الملوك النبهانيين، وهم الحكام الذين سقطت عمان في عهدهم تحت السيطرة البرتغالية. والملاحظ أن المراجع حول هذه الحقبة قليلة.

كان الامام الأول الذي انتخب في عمان هو الإمام الجلندي بن مسعود. كان الإمام هو الزعيم الروحي والحاكم الزمني الذي ينتخبه من يطلق عليهم «الشراة»، أي الذين اشتروا آخرتهم بدنياهم. ولم يكن الحكم وراثياً، وكان بالامكان اسقاط الحاكم[1]، إذا ما ارتأى الناس وبالذات المبرزون من رجال الدين ذلك. ومرت عهود لم يقم فيه حكم الائمة في عمان، واستطاع النبهانيون أن يسيطروا على السلطة ويعلنوها ملكية. وفي السنوات الأخيرة من حكمهم تدهورت الاوضاع وسقطت بعض أجزاء عمان الساحلية تحت السيطرة البرتغالية في بداية القرن السادس عشر.

ولقد وصل التدهور في عمان حداً فظيعاً، وبالذات حين وقعت البلد في مهاوي التفكك السياسي وانعدام الوحدة. وتصف الكاتبة عايشة السيار في كتابها عن اليعاربة هذه الحال قبل مجيء ناصر بن مرشد في عام ١٦٢٤ على النحو التالي ونقلاً عن قدامى المؤرخين العمانيين القدامى:

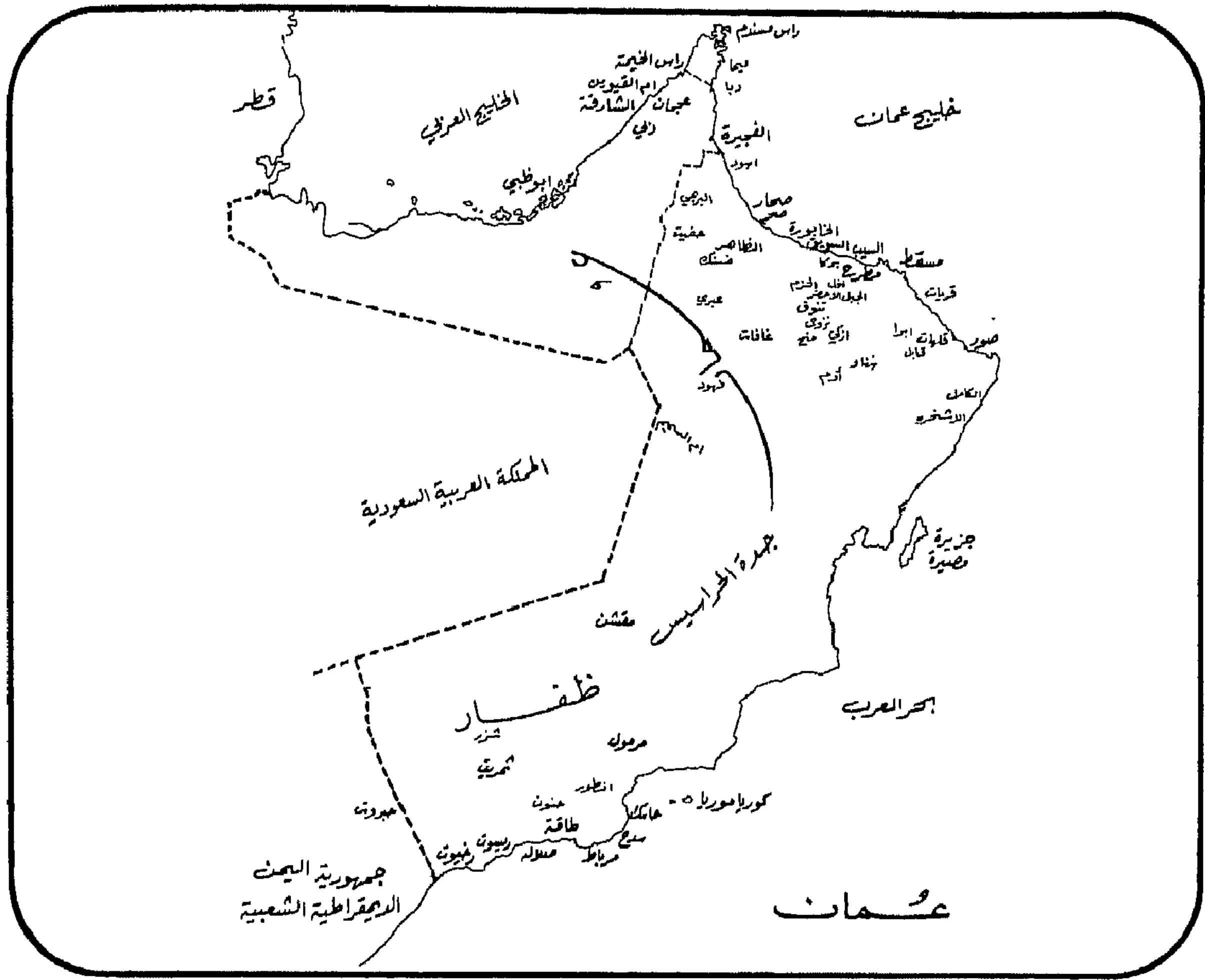
«كانت عمان عند توليته مقسمة الى مدن ومناطق على كل منها ملك أو حاكم، فالرستاق يحكمها مالك بن أبي العرب اليعربي. والنخل يحكمها سلطان بن أبي العرب وسمائل مانع بن سنان العميري وسمد الشان علي بن قطان الهلالي، اما عبري فيحكمها محمد بن حفير بن جبر، اما منطقة أزكى، فقد كانت تحت سيادة أهل الفكر، ومنح تحت سيطرة الجبابرة وبهلي وبلادست كانتا خاضعتين لسيف بن محمد الهنائي، والجابي وحصون تام كانت تحت نفوذ بني هلال، وبات ومقنيات كانتا خاضعتين لسيف بن محمد... ومنطقة جلفار كانت تحت تصرف شخص فارسي يدعى ناصر الدين، أما صحار ومسقط وقريات وصور فقد كانت تحت السيطرة البرتغالية»[2].

■ لقد كانت سيطرة البرتغاليين على الخليج شاملة. ولكنها بدأت في الضعف والتهاوي وبالذات منذ بداية القرن السابع عشر وذلك بسبب نضالات ابناء المنطقة وبسبب عوامل ضعف داخلية تعود الى البرتغال نفسها، وايضاً بسبب قدوم قوى أوروبية جديدة تمثلت في البريطانيين والهولنديين الذين أخذوا بانتزاع المستعمرات من تحت السيطرة البرتغالية. ولقد شكل العرب والفرس قوة مشتركة لمقاتلة البرتغاليين. وبحلول أعوام ١٦٢٠ - ١٦٢٢ كانت مهمة تحرير المنطقة بضفتيها العربية والفارسية قد انجزت باستثناء منطقة عمان، فبقي على ابنائها أن يخوضوا النضال ضد البرتغاليين منفردين وخاصة بعد أن كان الفرس قد حققوا اهدافهم وبعد أن بدأ التردد في أوساط الاستعماريين الانجليز في وقوفهم ضد البرتغاليين. بيد أن المصدر الأساسي لضعف العمانيين بقي في انعدام الوحدة الوطنية في أوساطهم، وهذا ما بقي متوجباً عليهم أن ينجزوه.

انتخاب ناصر بن مرشد إماماً:

في العام ١٦٢٤ تم انتخاب ناصر بن مرشد اليعربي كامام لعمان. وانحصرت سيطرته الفعلية حين انتخابه على قسم من منطقة الرستاق، ومن هذا الجزء انطلق واستولى على بقية ضواحي المدينة ثم تقدم الى منطقة نخل فأسقطها، ولقد تم كل ذلك بمساعدة قبائل اليحمد. ولقد أدت هذه الانتصارات الى تدعيم مركز الامام في الرستاق ونخل، حيث اتخذهما قاعدة للاستقرار وتجميع الانصار، كما أن سكان المناطق المجاورة بدأوا يحولون انظارهم الى الإمام سواء بباعث الرهبة من قوته المتنامية أو بباعث الرغبة في الالتجاء الى حمايته.

لقد اعتمدت عمان خلال الاف السنين



على دورها الملاحي للتنقل بين الهند والصين وجزائر اندونيسيا من جهة، وبين بقية المنطقة العربية ومنها إلى بقية مناطق العالم من جهة أخرى. لذلك فأنها أصيبت بضربة كبيرة حين أستولى البرتغاليون على موانئها. وكان تأثير انهيار الدور العماني شاملاً لكل المناطق والطبقات والفئات المختلفة. ولقد كان للرغبة في استعادة هذا الدور تأثير اجتماعي بالغ لخلق الأرضية للنضال ضد البرتغاليين.

في ظل هذه الأجواء جميعاً أسقط الامام سمائل ونزوي، وفتح منح وسمد الشأن وأبرا ثم أسقط الظاهرة وعبري وحصن بات وفتح منطقة الجو وليو. وبذلك تغلب العرب على المشكلة التي مكنت البرتغاليين من الاحتفاظ بحامياتهم وهي مشكلة التفكك السياسي، فلقد «سلك ناصر بن مرشد سياسة نضالية نشطة، خططت لتوحيد كل العمانيين، حيث صرف السنوات الأولى من حكمه في حملات الداخل لتحقيق هذه الوحدة. وتكللت جهوده، بعد بضع سنوات، بالقضاء على معارضيه من القبائل النزارية»(٣). وفي عمان كان الانقسام الى قبائل نزارية وقحطانية ذا تأثير بالغ سحب نفسه الى القرن الحالي.

لقد غدا من الضروري لانجاز مهمة توحيد القبائل العمانية والمناطق المختلفة في عمان، تحقيق حد كبير من التعبئة في صفوف الناس، وكان العامل الديني هو الذي يؤجج عواطف الناس ويعبئهم ويوحدهم. وهكذا جاء قيام الاسرة اليعربية ومواجهة البرتغاليين مرتبطاً أشد الارتباط بأحياء الامامة واختيار

الامام ناصر بما يملكه من قدرات سياسية وعسكرية وصفات شخصية مثل النزاهة والشجاعة والحسم. بل أن المؤرخين العمانيين قد نسبوا له القدرات والكرامات الفائقة.

قتال البرتغاليين:

يشير ابو التاريخ العماني، المؤرخ الضرير، عبد الله السالمي، أنه حين قصدت



الفونسو البوكيرك، القائد البرتغالي الذي فتح الخليج في بداية القرن السادس عشر.

حملة الإمام لوى صار البرتغاليون يساعدون المحاصرين، مما جعل قائد الحملة يقاتل صحار أولاً ويعود بعد ذلك لاسقاط لوى(٤). وكان ذلك هو الاحتكاك الأول.

لقد حدث أول تصادم مباشر بين الجانبين حينما قام القائد العماني الشيخ مسعود وقائد قوات الإمام، بالاشتباك مع البرتغاليين في مكان يعرف بطوي الرولة. ولقد استبسلت قوات الإمام استبسالاً عظيماً واستطاعت أن تلحق بالبرتغاليين هزيمة قاسية، وهدمت عدداً كبيراً من الأبراج والمباني التي كان البرتغاليون يتحصنون فيها بالاضافة إلى قتل عدد كبير منهم، إلا أن ذلك لم يؤد الى سقوط مسقط في يد العرب. ولكن المعركة انتهت بعقد معاهدة صلح كانت شروطها في صالح العمانيين ومن هذه الشروط أن يتنازل البرتغاليون عن كل الأراضي والمباني التابعة لهم في صحار ويعامل البرتغاليون العمانيين معاملة حسنة في مسقط ومطرح، وأن يدفع البرتغاليون جزية سنوية للإمام. ولم يغادر الشيخ مسعود موقعه حتى جمع الضريبة منهم(٥). ولقد وضع هذا الصلح الأساس الحقيقي للقضاء على مجمل الوجود البرتغالي في عمان. ولقد أصبح البرتغاليون في موقف الدفاع بعد أن ظلوا لعشرات السنين في موقف الهجوم. كما أن اصرار العمانيين على أخذ الجزية كان بمثابة تأكيد للسيادة العمانية وجعل البرتغاليين في موقع التابع. وبالطبع كان لهذا النصر العظيم أثره الكبير في نفوس العمانيين حيث شجعهم على مواصلة مسيرتهم لتحرير أراضيهم وتخليصها من الاعداء.

بعد هذا الانتصار توجه العرب إلى رأس الخيمة وهي التي كانت تعرف بجلفار ويطلق على عموم منطقة الساحل هناك اسم الصير، وكانت تتواجد فيها قوات برتغالية وفارسية. وهذه الأخيرة كانت جزءاً من القوات المشتركة العربية - الفارسية التي كونت لمقاتلة البرتغاليين. وتم اسقاط الحصن الفارسي أولاً رغم المساعدة البرتغالية له. وبعد ذلك اسقط الحصن البرتغالي.

وبعد ذلك اعطى الامام توجيهاته لمهاجمة صحار. وأمر قواته أن يكون تركيز اهتمامها في البدء على بناء حصن صحار قبل الهجوم. ولقد عبر ذلك عن تفكير عسكري ثاقب. ولقد استمر بناء الحصن وسط المعارك بل واستشهد اثناء القتال والبناء، قائد عماني بارز، هو راشد بن عباد إلا أن الحصن أكتمل ورابطت فيه قوات الامام. وانطلق العمانيون مرة أخرى لمهاجمة مسقط ونجحوا في عقد معاهدة أخرى يلتزم فيها البرتغاليون مجدداً بدفع الجزية السنوية وتسليم المناطق المحصنة التي يحتلونها في مطرح وضمان حرية التجارة في المناطق التي يسيطرون عليها وعدم التعرض لتجارة العمانيين. وبعد ذلك سقطت صور وقريات.

وفاة الإمام وتحرير مسقط:

في هذه الأثناء وتحديداً في ١٦٤٩م يموت هذا الزعيم الوطني البارز وقد «استولى على جميع عمان إلا مسكد (مسقط) فقد كان فيها (البرتغاليون) وقد... صالحوا مرتين وما زالوا ينكثون ثم نصب لهم الامام الحرب حتى وهنوا وضعفوا ووهي سلطانهم وتفرق أعوانهم وكاد الموت والقتل يأتي على أثرهم»(٦).

عبر هذا العمل الجليل، والكفاح الدائب الذي خاضه الامام من أجل توحيد عمان وتكتيلها لصب الجهود في المعركة توفرت الامكانية الفعلية للاجهاز على البقية الباقية من النفوذ البرتغالي. وتم إنتخاب الامام سيف بن سلطان اليعربي في عام ١٦٤٩ كإمام لعمان ولقد أخذ على عاتقه مهمة تحرير مسقط، ولم تمض سنة واحدة حتى كانت الجيوش العمانية تدخل مسقط وتنهي الوجود البرتغالي وذلك في عام ١٦٥٠.

■

المراجع

(١) بزواق، عبد الرحمن واخرون. **عمان في المحافل الدولية**. دمشق: دار اليقظة العربية.
(٢) السالمي، الشيخ نور الدين عبد الله بن حميد السالمي. **تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان**. القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي بمصر، ١٩٦١م.
(٣) السيار، عائشة علي. **دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا**. بيروت، دار القدس، ١٩٧٥.
(٤) العابد، صالح محمد. **دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧-١٨٢٠**. بغداد - مطبعة العاني، ١٩٧٦م.

الهوامش

(١) عبد الرحمن بزواق وأخرون، **عمان في المحافل الدولية**، دمشق،: دار اليقظة العربية، ص ٩٧ وما بعد.
(٢) عائشة السيار، **دولة اليعاربة في عمان وشرق افريقيا**. بيروت، دار القدس، ١٩٧٥. ص ٤٧ - ٤٨.
(٣) صالح العابد، **دور القواسم في الخليج العربي ١٧٤٧-١٨٢٠**، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٧٦، ص ٣٩.
(٤) الشيخ عبد الله السالمي، **تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان**. القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي بمصر، ١٩٦١، ص ٣.
(٥) السيار، ص ٥٤ - ٦١.
(٦) السالمي، ص ١٥.



● **لا تضعوا الحكمة في غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.**

الامام علي

، يقتحم الانسان ضجيج المجتمع ليغرق فيه أحزانه الصامتة.

طاغور

● **يستطيع كل حاكم أن يقيم لنفسه عرشاً من السيوف والحراب ولكنه لا يستطيع أن يجلس عليه.**

القس أنج

انتشار اللغة العربيّة في إفريقيا السودان

الحلقة الأولى

بقلم: عمار هلال





لقد وقع إختياري على دراسة هذا الموضوع والإهتمام به، بالنظر للواقع التاريخي الذي مرت به اللغة العربية في غرب إفريقيا السوداء منذ الإحتلال الفرنسي لهذا الجزء من القارة.

وفي هذا المقال نحاول أن نكشف العلاقة التي تربط إفريقيا الزنجية بالحضارة العربية الإسلامية عامة، ومدى إرتباط الأولى بالثانية ثقافةً وفكراً ولغةً خاصةً.

وعموماً فهذا المقال يطرح عدة أسئلة تتعلق بوضعية اللغة العربية في غرب إفريقيا ويحاول الإجابة عنها قدر الإمكان، منها: ما هو سبب إضمحلال اللغة العربية في غرب إفريقيا السوداء؟

علماً أن اللغة العربية قد سادت الجزء الغربي من القارة الإفريقية منذ القرن العاشر الميلادي على الأقل.

لماذا لم يكتب للغة العربية في غرب إفريقيا الصمود الكلي أمام التيارات المناوئة لها، كما هو الشأن بالنسبة لأقطار الشمال الإفريقي مثلاً؟ وهل إضمحلت العربية إضمحلالاً طبيعياً، أم هناك من ساعد على إندثارها في القارة السوداء؟ وما هو الدور الذي لعبته الإدارة الفرنسية في ذلك؟.

لقد مرت اللغة العربية تقريباً بنفس المراحل التي مر بها الإسلام في إفريقيا السوداء، وانتشرت بإنتشاره وتوطدت أركانها في

القارة بقدمه وأضحت في وقت ما لغة الجماهير يتعامل بها الناس في الأسواق والأماكن العمومية وغيرها، كما كانت ولا تزال في بعض أقطار إفريقيا السوداء لغة التعليم - والإدارة - والسياسة.

وخلال العهد الفرنسي في إفريقيا الغربية نافست اللغة الفرنسية الدخيلة عليها ولكن تفوقت العربية عليها بعدد تلاميذها ومدارسها، وذلك رغم ما بذله الاحتلال الفرنسي لاحباطها وعرقلة مسيرتها الطبيعية.

ولكن لسوء الحظ لم يستمر هذا التحدي الثقافي العربي للإحتلال الفرنسي أمداً طويلاً، ولم تستطع اللغة العربية أن تصمد أمام منافس قوي عنيد مدعم ومهيأ لخوض المعركة منذ زمن بعيد. ولقد ترتب عن إبعاد الثقافة العربية عامة، واللغة العربية خاصة من مجال عملها طردنا تحن العرب ثقافياً وحضارياً ودينياً وفكرياً من القارة السمراء، وذلك لإحلال ثقافة وحضارة الغرب محل ثقافتنا وحضارتنا في القارة.

ولقد بدأ هذا «الطرد» منذ سنة ١٩١١ للميلاد، وهو مستمر إلى يومنا هذا يزداد شدة، ووطأة تماشياً مع تطور وتقدم الحضارة العربية الحديثة، ومع أهداف الامبريالية العالمية والصهيونية.

وكل هذا يتم أمام «أعين لا تبصر» وأمام «عقول لا تفقه».

مكانة اللغة العربية في إفريقيا السوداء:

يجمع المؤرخون الغربيون[١] منهم والعرب[٢] على السواء أن الإسلام هو الذي فتح باب التاريخ لإفريقيا السوداء. أما قبل الفتح الإسلامي، فتاريخ إفريقيا السوداء لم يبتعد قط عن ضفاف البحر الأبيض المتوسط، والأحداث التي تعرضت لها القارة لم يصل صداها إلى العالم الخارجي إلا بعد الفتح الإسلامي.

ولا يكاد يكون هناك لتاريخ إفريقيا السوداء من مصادر معروفة غير المصادر العربية. فكتابات عبد الله البكري، والإدريسي، وإبن حوقل، وإبن بطوطة، وإبن خلدون، والعمري، والحسن الوزان، والمسعودي، وغيرهم ظلت إلى وقت قريب تحتل الصدارة وحدها في هذا المجال. وما زالت تحافظ على قيمتها التاريخية حتى وقتنا الراهن. وقد ساهم هؤلاء الرحالة العرب باعطاء معلومات غزيرة عن تاريخ إفريقيا السوداء، إبتداء من القرن الحادي عشر الميلادي.

لقد سادت اللغة العربية إفريقيا السوداء قبل الفترة الإستعمارية بقرون كثيرة. وألف الكثير من الأفارقة الزنوج في شتى ميادين الثقافة والعلوم بهذه اللغة[٣]، وقد أثنى بعض المؤلفين الغربيين على إنتاج الأفارقة باللغة العربية.

ومن هؤلاء العلماء الغربيين الذين أثنوا على إنتاج الأفارقة الزنوج بالعربية السيد أ. شاربونو (A. CHARBONNEAU)، الذي نشر مقالاً[٤] عن الثقافة العربية في السودان إستناداً إلى كتاب - تكملة الدباج - لأحمد بابا التمبوكتي.

وقد أبدى المؤلف دهشته وإعجابه الشديدين بالثقافة العربية في السودان الغربي. ويذكر السيد شاربونو في دراسته هذه ما يقرب من ١٧ عالماً عاشوا بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر الميلاديين. وقد تعلم هؤلاء العلماء كلهم إما في مكة أو في المدينة أو في القاهرة وينوه المؤلف بالمستوى الثقافي العالي الذي كان به هؤلاء العلماء الزنوج مشيراً إلى الخدمات الثقافية التي قدمها هؤلاء للحضارة العربية في المنطقة. وفي آخر مقال شاربونو نماذج مخطوطة عن مؤلفاتهم. وهي في أحسن الروعة الأدبية والدقة اللغوية والذوق الفني.

والحق أن اللغة العربية قد إحتلت مكانة مرموقةً بين الزنوج الأفارقة منذ القرن الثالث عشر الميلادي كما أشرنا سابقاً. وتنافس المثقفون الأفارقة لاكتساب مختلف المعارف بهذه اللغة[٥].

يشير إلى ذلك السيدان بيفار وإسكيت[٦]. (BIVAR et ESKETT) اللذان درسا الأدب العربي في نيجيريا وذلك حتى سنة ١٨٠٤.

وذكر المؤلفان عدة أفارقة إستهدوا بـانتاجهم الأدبي وذلك مثل البلبعي[7] ودان مرينا ودان مسـانيـح وجبـريـل دغـاديس وغيـرهم من السودانيين الـذين اشتهروا في ميـدان الأدب العربي خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

ولعل الشيء الذي يثبت المكانة المرموقة التي تتمتع بها اللغة العربية في غرب إفريقيا السوداء، هو أن هناك عدداً هائلاً من الموظفين الـزنوج في الإدارة الفـرنسية إبـان الإحتلال الفـرنسي لجزء القـارة، والذين تثقفـوا ثقافـةً فرنسية بحتة عادوا إلى الكتاتيب القرآنية قصد إعادة تربيتهم الدينية الإسلامية.

ويعلق عـلى هذه الظـاهرة أحـد الكتاب الفرنسيين قائلاً وبالحرف الـواحد مـا يلي[8]: «... إننا مهما بحثنا في أوساط المجتمعات في إفريقيا الغربية لا نجد عندهـا أدنى رغبة في التوجه إلى الثقـافة الغـربية. ويتضـح العكس عندما يتعلق الأمر بالثقافة الإسلامية».

ولقد لعب الطلاب الأفارقة الذين التحقوا بالجامعات العربية في المشرق العربي دوراً هاماً في نشر اللغة العربية بين الجماهير الإفريقية. وقد خصص لهؤلاء في مصر نظراً لأعـدادهم الهائلة، بجامعة الأزهر رواق كان يعرف برواق التكرور[9].

في مدينة سيغو (نيجيريـا) أنشأ أحـد الشبان النيجيريتين المتخرجين من الأزهر مدرسة عربيةً، كان يلتحق بها حوالي ١٢٠ تلميذاً. وبعد بضع سنوات دهش الفرنسيون عندما سمعوا بعض الشباب يتكلمون اللغة العربية في إحدى طرقات حي ماجندي بسيغو[10]

إن جل الباحثين العرب منهم والأوروبيين يتفقون على الرغبة الشديدة التي تحرك الأفارقة الزنوج لتعلّم اللغة العربية، وبالتالي على انتماء الأفارقة إلى حضارة العربية التي عرفوها منذ أزمنة غابرة.

ألا تستحـق هـذه الـرغبـة شيئـاً من التشجيعات المادية والأدبية من طرف الأسرة الكبيرة العربية؟..

وقد لعبت القبائل الإفريقية دوراً هاماً في ميدان نشر اللغة العـربية في غـرب إفريقيـا، وخاصة منها قبائل الفلان في غينيا وفي فوته جالون. ذلك ما يشير إليه المؤرخ الفرنسي أرنو (Arnaud)، مؤكداً على أنه في سنة ١٩١٢م. كان يوجد حوالي ٢٠ والياً أو مرابطاً بعضهم كانت في حوزته ما يقرب من ٤٠٠ كتاب من أمهات الكتب العربية.

بينمـا يشـير الكـاتب الفـرنسي فـانسـا مـونتـوي[11] (V. Monteuil) إلى أن عـدد الأشخـاص الذين يعـرفون القـراءة والكتابـة بالعربية كثيرون في منطقة فوتاجالون بالسنغال. وقد أثبتت الأبحاث أنه في كل قرية من قرى السنغال يوجـد حوالي ٢٥ شخصـاً يعرفـون القراءة والكتابة بالعـربية من قبـائل التكـرور ومثلهم عند قبائل الوولوف، الذين يكتبون لغتهم المحلية بالحروف الأبجدية العربية.

ومما يدل على إنتشار اللغة العربيـة في إفريقيا الغربية، هو أن عدد المدارس العربية في نيجيـريا مثـلاً قدر بمـا يقـرب من ٢٥.٠٠٠ مدرسة في سنة ١٩٠٠م. يلتحق بها ما يقرب من ٥٠.٠٠٠ تلميذ.

أما عن عدد تلاميذ اللغة العربية في كامل إفريقيا الغـربية فقـد قدر عـددهم في بدايـة الخمسينات من هذا القرن بما يناهز ٩٤.٠٠٠ من الأطفال، منهم حوالي ثلاث ماية يواصلون تعليمهم العالي خارج البلاد.

وبدون شك فهؤلاء التلاميذ يمثلون عاملاً هـاماً من عـوامـل التقـدم الإجتمـاعي ونشر التعريب في المنطقة.

والحق أن القبائل الإفريقية تهتم إهتماماً بالغاً بتعليم أطفالها الصغار اللغة العربية وذلك في سن مبكرة. ويتولى الأباء هذه المهمـة قبل التحاق الأطفال الصغار بالمدرسة العربية.

وعند قبائل الموريطانيين (les Manres) خاصة تتولى الأم تعليم أطفالها الصغار قبل أن يلتحق هؤلاء بالكتاب. فتعلمهم كيف يحسبون الأشيـاء، وكيف يهجئـون الكلمـات. وفي سن الخامسة يلتحق الأطفال بالكتاتيب القرآنية بدون إستثناء.

وفي هـذه المرحلـة يبدأ الأطفـال بتعلم الكتابة والقراءة وكيفية النطق وحفظ القرآن. أما في المرحلة الثانية فيلتحقون بالمدرسة العربية، حيث يتلقـون تعليماً أرقى من المـرحلة الأولى.


جامع الزيتونة

والبنات عادة ما ينتهي تعليمهن في سن العاشرة. وأحياناً يستمر هذا التعليم الديني والقرآني داخل الخيمة. أما الأطفال فيزاولون تعليمهم عادة حتى سن الرابعة عشرة من أعمارهم[١٢].

ويعطي الأفارقة الزنوج أهمية بالغة لحفظ القرآن. ويعاقبون أولادهم أشد العقوبات إذا قصروا في حفظه. يحدثنا عن ذلك الرحالة المغربي ابن بطوطة قائلاً ما يلي[١٣]: «... ولقد دخلت على القاضي (يقصد أحد قضاة السودان الغربي) يوم العيد وأولاده مقيدون فقلت له: ألا نسرحهم؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن... ومررت يوماً بشاب منهم (يقصد أهل السودان الغربي) حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجليه قيد ثقيل فقلت لمن كان معي: ما فعل هذا؟ قتل؟ ففهم عني الشاب وضحك. وقيل لي: إنما قيد حتى يحفظ القرآن»...

والجدير بالذكر أن الأفارقة الزنوج لا يتعلمون اللغة العربية من الجانب الديني فحسب، بل كذلك يتعلمونها ليندمجوا بواسطتها في نوع من الثقافة والحضارة الراقيتين. ورغم وجود بعض المدارس العربية التي تعطي تعليماً عربياً عصرياً نوعاً ما، مثل مدرسة تمبوكتو وسيغو وغيرهما ببلادهم الأصلية، فالطلاب الأفارقة يطمحون إلى تعليم عربي أرقى بعيداً عن ديارهم في المعاهد الكلاسيكية العربية مثل معهد بوتيليميت بموريتانيا الذي كان يضم في بداية الخمسينات من هذا القرن حوالي ٣٠٠ طالب افريقي قدموا إليه من جميع نواحي إفريقيا الغربية.

أما جامعة الزيتونة بتونس فقد كان يلتحق بها حوالي ٥٥ طالبا قدموا إليها من مالي فقط. ويلتحق بجامعة الأزهر آنيا حوالي ٨٥٩ طالباً من السودان الغربي، و ٦٤ طالبا من التشاد، و ١٤٦ طالبا سنغاليا. وهذا الميل إلى تعلّم اللغة العربية ودراستها لا يقتصر على الأفارقة المسلمين، بل يتعدى ذلك ليضم الفئات الأخرى الأفريقية التي لا تدين بالإسلام[١٤].

أليست هذه الأرقام دليلاً قاطعاً على مدى

تعلق الأفارقة باللغة العربية وتعلمها باعتبارها عاملاً حضارياً لا يتجزأ عن الحضارة العربية التي ينتمون إليها؟.

دور اللغة العربية الحضاري:

لقد مثلت الكتابة العربية لمدة عدة قرون عاملاً حضاريا مشتركا للثقافات المحلية في غرب إفريقيا السوداء. واستعملتها هذه الأخيرة لكتابة لهجاتها المحلية. والمؤكد هو أنه لولا وجود اللغة العربية لبقيت هذه اللهجات مثل السواحلية والحوصية والفلانية وغيرها لهجات شفوية لا كتابة لها.

وقد ساهمت اللغة العربية في إثراء هذه اللهجات المحلية الإفريقية بنسبة ٥٠٪ من المفردات. ومن ثم فقد كانت مساهمة التعريب كبيرة في نشر الحضارة العربية في غرب إفريقيا، وذلك رغم بعض العراقيل التي اعترضت طريقه ورغم النقائص التي إتسم بها[١٥].

ويكمن الدور الثقافي والحضاري للغة العربية في الكتاتيب القرآنية بالدرجة الأولى. إن لهذه الكتاتيب في غرب إفريقيا السوداء آفاقاً واسعة من حيث أهميتها الثقافية والحضارية، وذلك على عكس ما يذهب إليه بعض المؤلفين الغربيين[١٦]. وتكمن هذه الأهمية خاصة في الحفاظ عن التراث الحضاري والثقافي العربي في المنطقة، فضلاً على أنها تشكل أرضية خصبة للدخول في عالم الحضارة العربية بالنسبة للأفارقة الزنوج[١٧].

والمعترف به تاريخيا، أن إفريقيا السوداء بقيت بدون كتابة حتى مجيء العرب إلى جنوب صحرائها. ونقل العرب معهم حضارتهم إلى القارة فساد الإسلام جزءاً هاما من البلاد وانتشرت كتابة العربية، والشريعة الإسلامية في القارة. كما أن العرب نقلوا إلى المنطقة بعض الفنيّات ونباتات الأدوية وربطوا إفريقيا السوداء ثقافياً وحضارياً وسياسيا ببقية العالم التي كانت منعزلة عنه سابقاً تماما.

ووجود الامبراطوريات الإفريقية القديمة مثل مالي، وشنغاي، وكنم – بورنو، وحتى المتواضعة منها مثل سلطنات الشرق الإفريقي وغيرها لمدين بالكثير إلى الحضارة العربية، وإلى التنظيم العربي، وإلى اللغة العربية، وللإطارات المسلمة[١٨]، التي ساعدتها على النمو والتطور.

ولعل مما يدل على تأثر الأفارقة الزنوج بالعربية هو أن بعض طلابها قد تيقنوا أخيراً أن الأسماء التي يسمون بها، وكان بعضها يدل على صنم أو تمثال أو غيره، وقد اعطاها لهم أباؤهم تأثراً بنزعة وثنية أو قبلية بائدة أو غيرها، أنها لا تليق بهم، ولا بمقامهم، ولا تتماشى مع ثقافتهم العربية، ومن ثم سعي بعضهم إلى تغيير إسمائهم الى اسماء عربية.

ويشير إلى ذلك السيد مارسيل كارديير في أن أحد الطلاب السنغاليين قد كتب إلى رئيس الدائرة التي ولد فيها من القاهرة حيث كان يدرس هناك، قصد تبديل إسمه الذي إشمأز منه وتعويضه باسم عربي[١٩].

وقد شهدت اللغة العربية إنتشاراً كبيراً في السنغال خاصة بين سنتي ١٩٠٩ – ١٩١٢ الميلاديتين. وقد تعتبر هذه الفترة من أزهى عصور اللغة العربية في البلاد. بحيث تشير الوثائق الرسمية[٢٠] للإدارة الفرنسية إلى أن المدارس العربية بلغت أوجاً كبيراً من الإنتشار في البلاد، وتتوزع هذه الأخيرة عبر ١٨ دائرة أهمها، دكار، لوفا، باؤول، ريفيسلو، سان لويس، وكايور. وقد قدرت الإحصائيات الرسمية الفرنسية عدد تلاميذ المدارس العربية خلال سنة ١٩١٢م. بما يقرب من ١١.١١٥ تلميذاً يشرف على تعليمهم حوالي ١.٣٨٥ معلماً. ولا يلتحق من بين هؤلاء التلاميذ بالمدارس الفرنسية إلا عدد ضئيل جدًا يتمثل فيما يقرب من ٦٣٣ تلميذا فقط[٢١].

أليست هذه الأرقام دليلاً قاطعاً على تفوق اللغة العربية على منافستها اللغة الفرنسية في السنغال من جهة وعلى مدى تمسك السنغاليين بالعربية من جهة أخرى.

تلي ملحقات غينية وساحل العاج

إدارة التعليم العمومي

الفنون الجميلة

مديرية التعليم الابتدائي / المكتب الثالث

ملحق رقم 02

وضعية التعليم الابتدائي في المستعمرة الفرنسية بساحل العاج في نهاية السنة الدراسية 1907/1906 (1)

اسم البلديات او المواقع التي تقع بها المدارس	المدارس الحكومية: عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		المدارس الحرة: عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		المجموع: عدد المدارس				عدد الاساتذة			عدد التلاميذ	
	ذكور	اناث	مختلطة	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	اناث	ذكور	اناث	مختلطة	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	اناث	ذكور	اناث	مختلطة	المجموع	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	اناث
ابدجان	1	−	−	1	1	2	25	−									1	−	−	1	1	1	2	25	−
ابراسو	1	=	−	2	−	2	62	−									1	+	−	1	2	−	2	62	−
لابوالكبير	1	−	−	1	−	1	48										1	−	=	1	1	−	1	48	−
...ايو	1	−	−	1	−	1	16	−									1	−	−	1	1	−	1	16	−
بندوكو	1	−	=	1	−	1	32	−									1	−	−	1	1	−	1	32	−
كوروغوقو	1	=	−	1	−	1	22	−									1	−	−	1	1	−	1	22	−
أوديينى	1	=	−	1	−	1	40										1	=	=	1	1	−	1	40	−
ساساندرا	1	−	−	1	−	1	30	=									1	=	=	1	1	=	1	30	−
مبوغياكرو	1	−	−	1	−	1	10	−									1	−	−	1	1	−	1	10	−
بـ...وس	1	−	=	1	−	1	15	=									1	−	−	1	1	−	1	15	−
بسواكسى	1	−	−	1	−	1	15	−									1	−	−	1	1	−	1	15	−
ينقل	11	−	=	12	=	13	315	=									11	=	−	11	12	1	13	315	−

(1) ARCHIVES : S.O.M. Paris - Dossier SENEGAL N°IO

ملحق رقم 01.

غينيـــــيا (تـــابع)

اسم البلديات او المواقع التي تقع بها المدارس	المدارس الحكومية								المدارس الحرة								المجموع								
	عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		عدد المدارس				عدد الاساتذة			عدد التلاميذ	
	ذكور	اناث	مختلطة	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	اناث	ذكور	اناث	مختلطة	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	اناث	ذكور	اناث	مختلطة	المجموع	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	اناث
العدد المنقول	13	3	1	15	6	21	912	117	3	1	-	4	1	5	77	45	16	4	1	21	19	7	26	990	62
كورانسا	1	1	-	1	1	2	72	44										1	-	2	1	1	2	72	[illegible]
منسن		-	1	1	-	1	112	21										-	1	1	1	-	1	112	21
بيلا	1	-	-	1	=	1	25	-									1	-	-	1	1	=	1	25	-
سباايارا	1	-	-	1	-	1	25	-									1	=	=	1	1	=	1	25	=
كيسو دانقـو	1	-	=	1	-	1	15	-									1	=	-	1	1	-	1	15	-
بروادو	-	-	-	-	=	=	-	-	1	-	-	1	=	1			1	-	-	1	1	-	1	5	-
فرناح	1	+	-	1	-	1	45	-			-						1	-	-	1	1	-	1	45	-
ملحوظة : هناك 15 مدرسا ومعرنة في مدارس غينيا الفرنسية من الاهالي زيادة على 34 معلما الذين احصوا في هذه الوثيقة																									
المجموع	18	4	2	21	7	28	1206	182	4	1	-	5	1	6	82	45	22	5	2	29	26	8	34	1288	27

وزارة التعليم العمومي والفنون الجميلة

مديرية التعليم الابتدائي / المكتب الثالث

ملحق رقم 1

وضعية التعليم الابتدائي في المستعمرة الفرنسية بغينيا في نهاية السنة الدراسية: 1907/1906 (1)

اسم البلديات او المواقع التي تقع بها المدارس	المدارس الحكومية: عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		المدارس الحرة: عدد المدارس			عدد الاساتذة			عدد التلاميذ		المجموع: عدد المدارس				عدد الاساتذة			عدد التلاميذ	
	ذكور	إناث	مختلطة	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	إناث	ذكور	إناث	مختلطة	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	إناث	ذكور	إناث	مختلطة	المجموع	معلمون	معلمات	المجموع	ذكور	إناث
كوناكرى	13	1	1	5	4	9	215	61	1	1	=	1	1	2	25	45	4	2	1	7	6	5	11	240	106
بوكي	1	1	=	1	1	2	122	34	1	=	=	1	=	1	10	=	2	1	=	3	2	1	3	132	34
فاريكارياح	1	=	=	1	=	1	40	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	-	=	1	1	4	1	40	=
كريديا	1	1	=	1	1	2	101	22	=	=	=	=	=	=	=	=	1		=	2	1	1	2	111	22
بوفا	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	2	=	2	42	=	1	=	=	1	2	=	2	42	=
فوتوبا	1	=	-	1	=	1	50	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	1	1	=	1	50	=
اميو	1	=	-	1	=	1	60	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	1	1	=	1	60	=
ديتيم	1	=	=	1	=	1	70	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	1	1	=	1	70	=
لابي	1	=	-	1	=	1	78	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	1	1	-	1	78	
يون كام كرن	1	=	=	1	=	1	12	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	1	1	=	1	12	=
بانتقانران	1	=	=	1	=	1	66	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	1	1	=	1	66	=
لقسيرى	1	=	=	1	=	1	88	=	=	=	=	=	=	=	=	=	1	=	=	1	1	1	1	88	-
ينقل	13	3	1	15	6	21	912	117	3	1	=	4	1	5	77	45	16	4	1	21	19	7	26	990	162

(1) ARCHIVES : S.O.M. Paris - Dossier SENEGAL N°IO

ملحق رقم 52 مكرر (2) — ساحل العلج (تابع)

اسم البلديات او المواقع التي فتح بها المدارس	المدارس الحكومية: عدد المدارس – ذكور	اناث	مختلطة	عدد الاساتذة – معلمون	معلمات	المجموع	عدد التلاميذ – ذكور	اناث	المدارس الحرة: عدد المدارس – ذكور	اناث	مختلطة	عدد الاساتذة – معلمون	معلمات	المجموع	عدد التلاميذ – ذكور	اناث	المجموع: عدد المدارس – ذكور	اناث	مختلطة	المجموع	عدد الاساتذة – معلمون	معلمات	المجموع	عدد التلاميذ – ذكور
العدد المنقول	24	-	-	25	1	26	471	-	-	-	-	-	-	-	-	-	24	-	-	24	25	1	26	471
قيديكو	1	-	=	1	-	1	17	-	4	=	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	1	-	1	17
اسيما	1	-	-	1	-	1	8	-	=	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	1	-	1	8
سوبري	1	-	-	1	-	1	17	-	=	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	1	-	1	17
دابون	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	4	-	4	120	-	4	-	-	4	4	-	4	120
جاكبين	-	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	-	1	62	-	1	-	-	1	1	-	1	62
يسونوا	-	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	-	1	9	-	1	-	-	1	1	-	1	9
منسني	-	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	-	1	20	-	1	-	-	1	+	-	1	20
باسوم	-	-	-	-	-	-	-	-	1	-	-	1	-	1	25	-	1	-	-	1	1	-	1	25
المجموع	27	-	-	28	1	29	519	-	8	-	-	8	-	8	296	-	95	-	-	35	36	1	37	749

الهوامش:

(١) R. Mauny: les siecles obscurs de l'Afrique
— A. Gouilly: L'Islam en A.o.F.
— V. Monteuil: L'Islam noir.

(٢) العمري سويلم: الافريقيون والعرب
– حسن إبراهيم حسن: الإسلام في القارة الإفريقية
– نعيم قداح: حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية.

(٣) Annuaire de la Société Archéo logique de la Province de Constantine Années 1853-1853 P. 1 à 48.

(٤) Annuaire de la S[té] Archéo Ch[o]: op., cité, même PP.

(٥) Nigeria Magasime n° 68 12/1961 P. 83 et Suite.

(٦) Nigeria Magasime: op., cité., même PP.

(٧) البلبعي: وهو أصلاً جزائري هاجر إلى نيجيريا مع عائلته وهو طفل صغير واستقر بها إلى أن وافته المنية.

(٨) Marcel Cardaire: L'Islam et le Territoir Atricain — Paris — 1954 P. 11.5.

(٩) د. عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي في عهد الأساقيين الجزائر ١٩٧١ ص ١٤٦

(١٠) M. Cardaire: op., cité même P.

(١١) Vincent Monteuil: L'Islam noir Paris 1964 PP.222.223.

(١٢) V. Monteuil: op., cité.,

(١٣) رحلة ابن بطوطة: بيروت ١٩٦٤ – ط/الحديثة ص ٦٩٠.

(١٤) V. Monteuil: L'Islam noir en marche, le Monde, 14-15-Juin 1960.

(١٥) V. Montenil: op., cité.

(١٦) Cf G. Hardy: L'Enseignement au Senégal P.18, A. Gonilly: L'Islam en A.o.F. PP. 221-223.
L. Sonollet: L'enseignement en A. o. F. Paris 1913 P.7510.

(١٧) Afrique et Asie: n° 4 1953 P.6

(١٨) V. Monteuil: op., cité, P. 222.

(١٩) M. Cardaire: op., cité P. 116.

(٢٠) Archives: S.o.II. Paris-dossier Senégal No.1

(*) أنظر صورة الوثيقة والتعليق عليها في آخر المقال.

(٢١) Ar Chives: S.O.R. — Paris — dossier Senegal n° 10.

(*) أنظر صورة الوثيقة والتعليق عليها في آخر المقال.



- **من اعترف بجهله فقد انكشف مرة، أما من لم يعترف فقد انكشف مرات.**

- **إن الذي ينتصر على غيره قوي، والذي ينتصر على نفسه أقوى.**

- **إننا لا نرى الأشياء على حقيقتها من حيث هي، بل كثيراً ما نكتفي بقراءة ما عليها من إشارة أو عنوان.**

تاريخ نظم البريد في العالم

ترجمة
قسم التوثيق والأبحاث



فرانسوا دو رشوار يتلقى رسالة والصورة لوحة لجان فوكيه من القرن الخامس عشر ماخوذة من «تاريخ الرومان»



منذ فجر التاريخ كانت عملية ايصال الأوامر إلى الرعايا الشغل الشاغل للملوك والحكام. وقبل الرسائل الخاصة، كانت عملية إيصال الأوامر الرسمية قد ظهرت وظهرت معها طريقة إيصالها إلى اماكن ارسالها مهما كانت طريقة الكتابة سواء كان ذلك على اللوحات أو على الخشب أو على الورق.

وإذا اعتمدنا على المؤرخ اليوناني «ديودور» وهو من صقلية الذي كتب في القرن الأول قبل الميلاد، نجد ان ملوك الاسرة المصرية الثالثة عشرة (التي حكمت لعشرين قرناً قبل المسيح) اقامت نظاماً بريدياً ورد ذكره حتى في التوراة.

يقول «هيرودوت» ان سيروس الكبير ملك الفرس اقام محطات تسمح له بالاتصال برعاياه



ساع ينقل الرسائل سيراً على قدميه.

بكل سهولة وذلك قبل ذهابه للحرب حوالي العام ٥٠٠ قبل المسيح. وفي اليونان كانت المدن متصلة بعضها ببعض بواسطة محطات اتصال وهؤلاء الجدود البعيدون الذين اقاموها يعتبرون نماذج لسعادة البريد اليوم.

في هذا الوقت يدعي البعض أن الفرس كانوا يستعملون الحمام لايصال اخبارهم. وفي الحرب العالمية الأولى حلت الحمائم بكثرة محل هاتف المعركة.

وتجدر العودة إلى تاريخ روما لملاحظة وجود نظام بريدي حقيقي ولكنه كان مخصصا في اغلب الاحيان للمراسلات الرسمية. وهذا النظام البريدي الروماني المنتشر في كل انحاء الامبراطورية لم يكن مقصوراً على وصل المدن وتقوية التجارة والسماح للجنود بالانتقال فقط بل إنه كان يستعمل أيضا لنقل اوامر وتعليمات الحاكم وإلى أقصى الاماكن. ويعتبر «اوغست»، وهو الباني الحقيقي لعظمة روما، أول من أنشأ نظاماً بريدياً.

فلقد انشأ في القرن الأول من التاريخ ما يوصف بأنه (الاتصال الشعبي) وهو نظام شديد التعقيد ووضعه تحت امرة أحد كبار الموظفين. وكانت ادارة هذا النظام مسؤولة أولاً عن عملية نقل رسائل الامبراطور إلى ممثليه وضباطه وعليها بعد ذلك تأمين عملية انتقال الموظفين والسهر على تأمين المواد لفرق الجيش.

وهذه العملية ذات الأهمية البالغة بنظر الامبراطور كان يلزمها عدد كبير من الموظفين. ولأن مبعوثيه يسافرون بسرعة، فقد كانت تلزمهم محطات تنتظر فيها الجياد. وتدعى هذه المحطات (Mutationes) وهي كلمة لاتينية تعني «عملية التغيير». وتقع كل محطة على بعد ستة أو عشرة أميال رومانية (حوالي ثمانية إلى عشرة كلم) عن الأخرى وذلك حسب مصاعب الطريق.

والواقع ان بعض المناطق الفرنسية مثل «مويزون» في «المارن» أو «موديزون» في «الهيروست» تدفع للذكرى في هذا المجال. فنتيجة للحفريات هناك وجدت بعض هذه المحطات التي تميزت بوجود هياكل عظمية لبعض الجياد. ولبعض هذه المحطات الحق به أمكنة للحدادة من أجل حدوات الجياد وأخرى خاصة بمخازن الحبوب. وبالقرب من هذه المحطات كانت توجد منازل تستعمل كفندق وكمكتب بريدي. وكان وجهاء القوم يتولون ادارتها ويعينون لمدة خمسة اعوام. وكانت افضلية الاستقبال تعطى لمبعوثي الامبراطور وبعدهم يأتي استقبال المسافرين العاديين.

كان الساعي النشيط يقطع مسافة ٧٥ كلم يوميا. أي انه كانت تلزمه أربعة ايام ونصف للانتقال من لوتس (باريس) إلى كوندات (رين). ولكن عندما يكون الأمر ذا اهمية كبرى فإنه كان يقطع مسافة ١٤٠ كلم يومياً. وكان المفتشون يتأكدون من حسن سير العمل ويسهرون على توفير كل وسائل العمل للحدادين مثلاً وبشكل جيد.



حتى القرن السابع عشر استخدم اغنياء القوم سعاة. وكان ملك فرنسا يستخدم حوالي المئة والسيد كان يستخدم اثنين أو ثلاثة. وفي العصور الوسطى كان اجرهم اليومي يوازي الخمسة فرنكات للساعي الذي يسير على قدميه وثمانية عشر فرنكاً للساعي الذي يمتطي حصاناً وذلك عن كل ٥٥ كلم.

واغلب الاحيان كان يقام مركز عسكري بالقرب من المحطة لان السعاة كانوا ينقلون، بالاضافة إلى رسائل الملك، اشياء اخرى. وخاصة اموال الدولة واحتمال تعرض هؤلاء لهجمات اللصوص كان وراء اقامة المركز العسكري.

العصور الوسطى:

كان السعاة المكلفون بالتجول في كل أراضي الامبراطورية لا يكتفون بتأدية واجباتهم الرسمية فقط بل كانوا يحملون طوعا الاخبار التي يحصلون عليها قبل واثناء رحلاتهم.

مبدئيا لم يكن لهم الحق إلا بنقل الرسائل الملكية. ولكنهم كانوا ينقلون الرسائل التي يكتبها الجنود أو يكتبها أحد لهم والموجهة لعائلاتهم. وكان المفتشون يغضون النظر عن هذه المخالفات. وهكذا ساعدت عملية «الاتصال الشعبي» التي اسسها «اوغست» على نقل الاخبار ودامت حوالي ثلاثة قرون. وشيئاً فشيئاً ونتيجة لعمليات الانفصال عن الامبراطورية وللهجمات «الجرمانية» الأولى بدأ هذا النظام يتدهور. وقد توقف نهائيا واندثر في القرن الخامس.

أما شارلمان فأعاد احياء الطريقة الرومانية نوعا ما. وكان يسهر شخصيا على أن يصل رعاياه وكذلك رسائله وقوانينه إلى كل انحاء مملكته من الشرق إلى الغرب، لذلك جدد الطريقة الرومانية واضاف عليها واقام طرقا طويلة للاتصالات بين كل من المانيا وايطاليا والغال:

كان السعاة ينقلون اوامر الامبراطور

ويبلغونها للكونتات وهم ممثلوه. ولكن التفكك في السلطة وولادة الاقطاعية وضعا حداً لكل عملية منتظمة. وبقيت عملية نقل رسائل الملك الرسمية واوامره متروكة للمبادرة الشخصية وذلك لقرون طويلة حتى حكم لويس الحادي عشر. وكان الملك له سعاته الخاصون كذلك الكنيسة والجامعة والاقطاعيون. ولم يكن الملك يجد صعوبة في ارسال طلباته كون السلطات الملكية كانت محدودة.

رجال الدين:

كانت الاخبار التي يحملها السعاة تنتقل بسرعة من قرية إلى أخرى وقد يفاجأ المرء لسرعة وصول اوامر السلطة إلى رعاياها في كل انحاء المملكة ولعل هذا المثل قاطع في دلالته: توفي الملك لويس الثامن في قصر «مونبسبيه» في الثامن من تشرين الثاني عام ١٢٢٦. وتقع «مونبسبيه» على بعد ٣٠ كلم من كليرمون فيرا في الاوفرن. وقد ترك ولداً في الثانية عشرة (الملك سان لويس في ما بعد) واورث الحكم إلى ارملته «بلانش دي كاستيل». وقد طلب قبل وفاته ان تقوم الملكة بتتويج ابنها في «رين» في أقرب فرصة.

وفي أقل من ثلاثة اسابيع احضرت جثة الملك لويس الثامن إلى باريس واقيمت مراسم الدفن الرسمية في كنيسة «نوتردام» و «سان دوني». واستدعي كل بارونات المملكة إلى رين في السابع والعشرين من الشهر نفسه. وجاء الجميع بملابس مهيبة في الخامس والعشرين وبعضهم عرج على «سواسون» حيث كرس الوريث فارساً.

هذا المثل يشير إلى انه رغم وضعية طرق المواصلات فان التنقل كان يسير بسرعة منذ القرن الثالث عشر.

وقد ساهمت الكنيسة في ذلك إلى حد كبير. فلم يعد رجال الدين يلتزمون معابدهم. إذا كان من الضروري اقامة الاتصالات مع معابد اخرى عند حصول حدث مهم: وفاة قسيس أو أحد المبشرين أو انتخاب خلف له. واتسعت الاتصالات بين رؤساء المعابد

واستفاد التاريخ من ذلك. واصبح رجل الدين المنقول من معبد إلى آخر ينقل معه الاخبار. وهكذا توسعت شيئاً فشيئاً صفحات تاريخ المناطق.

الجامعة تنظم بريدها:

وكان هناك التجار أيضاً والحجاج... والشعراء. ولأن الطرقات لم تكن آمنة بسبب اللصوص الذين غالباً ما يهاجمون المسافر الوحيد فإن التجار كانوا يشكلون مجموعات تتوجه لزيارة المعارض من مدينة إلى أخرى. ويسهرون على البضائع وينقلون برضا تام رسائل زملائهم والاجوبة عليها. وفي المساء كانوا يتبادلون وينقلون ما يكونون قد سمعوه. وكان أصحاب المهن يتناقلون المراسلات وأحياناً الرسائل المصرفية. وهذه الطريقة القديمة ما زالت متبعة حتى اليوم.

وهكذا نرى ان طرق فرنسا لم تعد صحراوية وكان يستعملها الحجاج وكل مسيحي عليه القيام برحلة ولو مرة واحدة في حياته.

وطريقة اخرى لنقل الاخبار. لم يكن الحجاج أو المجندون في الحملات الصليبية يرسلون أي خبر. كان الذهاب إلى الحرب يدوم أحياناً ثلاث أو أربع سنوات. وكانت المرأة تبقى دون أخبار من زوجها طوال ذلك الوقت. قد يخبرونها بوفاته فكانت تتزوج على الفور لأن المرأة لا تستطيع البقاء بدون رجل ولو لبرهة. والزوج الاسير من الاعداء يعود بعد سنوات طويلة فلا يتعرف عليه أحد غير كلبه.

قصص كهذه دخلت عالم الاغنية. وكانت هذه الأغاني تروى على نزلاء القصور والفنادق لتسليتهم. وكان بعض هؤلاء النزلاء يضخم الأخبار.

كان الملك يحتفظ بسعاته لارسال رسائله إلى ممثليه. أما الكنيسة والتجار فكانت رسائلهم المتبادلة محدودة. أما شرف اقامة خدمة بريدية منظمة في العصور الوسطى فيعود لجامعة باريس.

ولانها تملك تماثيل منذ بداية القرن الثالث عشر وكانت فخورة بالاساتذة الذين



ساعي العلب البريدية عام ١٨٥٣. ا.ه يمر يومياً على العلب في باريس وفي التجمعات السكنية الكبيرة. وفي بعض المقاطعات يوزع البريد مرة في الاسبوع.

يقومون بالتدريس في كلياتها فقد اتجه مئات من الطلاب ناحية جامعة باريس. كانوا يأتون من فرنسا وأيضاً من انكلترا والمانيا واسبانيا.

كانت الدروس تستغرق وقتاً طويلاً وكانت جعبة الطلاب تخوي في مدة قليلة. بالنسبة للطلاب الذين تسكن عائلاتهم في «جزيرة فرنسا» أو في الضواحي القريبة كانوا يستطيعون تدبير امورهم ثم الذهاب لتمضية العطلة المدرسية في منازلهم. ولكن ذلك لم يكن مستطاعاً بالنسبة للذين اتوا من اماكن بعيدة وعليهم تمضية عامين أو ثلاثة اعوام في باريس. كيف العمل؟.

تنبه المسؤولون في الجامعة لهذا الامر وحصلوا من الملك ومن البابا على الاذن باقامة نظام بريدي يسمح للطلاب بمراسلة ذويهم وبطلب المعونات المالية... وهذا النظام الذي انشىء حوالي العام ١٢٣٠ وضع تحت امرة عمداء الجامعة وكان هؤلاء اشخاصاً مرموقين ملحقين بالجامعة ويستفيدون من امتيازاتها.

كان العمداء يوجهون السعاة. وكان هؤلاء ينقسمون إلى فئتين: فئة السعاة الكبار الذين كانوا ينقلون الطرود الكبيرة بتواريخ محددة ويعودون بالمال والرسائل. وفئة صغار السعاة الذين كان عليهم تأمين الاتصال بالمناطق القريبة وكانت مهمتهم الرئيسية نقل الحقائب ومرافقة الطلاب.

وهذه الميزة التي انفردت بها جامعة باريس امتدت إلى كل جامعات المملكة وعاشت حتى عام ١٧١٩.

لويس الحادي عشر:

هذا النظام البريدي وهذا الانتشار للاخبار كان يشكل عاملاً سيئاً وغير كاف ولا يمكن الاستمرار به. وتغير هذا النظام كلياً بعد حرب المئة عام واستعادت الدولة سلطاتها عليه. وقد قرر لويس الحادي عشر النهوض باقتصاد فرنسا ورأى ان التجارة والصناعة لا يمكنهما ان يزدهرا إذا لم يكن هناك نظام بريدي بشكل منتظم. وهكذا صدر الأمر الملكي بانشاء «البريد الملكي» في التاسع من تموز عام ١٤٦٤.

كان الهدف مزدوجاً: نقل الرسائل واخبار الملك عن كل ما يجري في مملكته. «نريد معرفة اخبار كل المناطق والاعلام عندما نريد باخبارنا». وذلك واضح تمام الوضوح. وهكذا انشئت على الطرق الرئيسية اماكن بريدية بين

الـواحد والآخـر ١٦ كلم. كانت تـوجد فيهـا احصنة «جاهزة وسريعة» مخصصة لناقلي أمر ملكي. وإذا مرَّ أحد الاجانب يجب ان يختم جـواز سفره. وكـان رؤسـاء هـذه الامـاكن البريدية أشخاصـاً ذوي أهمية يعينهم الملـك ويكـونون بتصـرف رئيس مكاتب البـريـد في فرنسا. وكانوا يتقاضون مرتباً مقطـوعاً يبلـغ «عشـرة قروش» (نصف ليـرة) لكـل ١٦ كلم مقطوعة. وكانت المكاتب على مفترقات الطرق إذا كان ذلك ممكناً.

استقبال الرسائل الخاصة:

وطالت مدة تنظيم المحطات لانه كان يجب اصلاح الطرق أولاً. «وشيئاً فشيئاً» اصلحت جميعها. وبعد ان كانت مخصصة لاستقبـال البريد الرسمي انتهت بالتعامل مـع الرسـائل الخاصة. يومها وجدت إدارة البريد ولم تتوقف عن التطور إلا في نهاية «النظام القديم».

واصبح مطلوباً تنظيم ادارة بريدية في كل ناحية من انحاء المملكة لان الرسائل الخاصة بدأت تتكاثر.

ورغم ذلك كانت الانبـاء تنتشر بسرعـة قصوى. فانباء مجزرة سانت باتيليمي (٢٤ آب ١٥٥٢) وصلت إلى «مو» مساء اليوم الدامي نفسه. وانتشر الخبر في «الوتسون» في اليـوم الثاني مما ساعد حكام المناطق على عدم انتظار رسـل الملك لاتخـاذ الاحتياطـات للدفـاع عن المهددين.

ولكن عملية نقل الرسائل الخاصة بقيت خاضعة لامزجة رؤسـاء اقسام البـريد، ولكن هنري الثالث الذي كان دائماً بحاجة للمال وجد في عملية نقل الرسائل الخاصـة مورداً مهمـاً لخزينته.

وهكـذا اصبح الملكيـون ينقلـون الكتب القانونية التي ترسل لرجال القانون ثم بدأوا بنقل الرسـائل الخـاصة مقـابل رسم. وتلقى «الساعي الملكي» أجراً بالسهر على حسن سير العمل. ويعود ذلك إلى عام ١٥٧٦.

وقد قام بعد ذلك هنري الرابع ولويس الثالث عشر بتحسين الوسائل القانونية، فالأول اهتم بتحسين الطرقات (مما سـاعد عمليـات التهريب) وهنري الرابع انشأ مركـز مراقبـة البريد ووضع على رأسه أحد تابعيه المخلصين

وبالاضافة إلى مكتب باريس فتحت مكاتب في المـدن الكبـرى. بـوردو، ليـون، تـولـوز ومارسيليا. وكان على سعاة الملك الذين لقبوا باسم راكبي الأحصنة الملكيين، الذهاب والاياب في أوقات محددة. ولكن يجب تقـدير ظـروف الطريق.

عام ١٦٢٦ وضع نظام التوقيت. وقد منع على موظفي البريد قبول الاكراميات واستغلال المكاتب لارسال الذهب والأحجار الكريمة؟ كما لم يعد مسموحاً ارسال النقود إلا بحدود مائة ليرة.

واهتم «ريشيليـو» بمحتويـات الرسـائل المرسلة بالبريد. واوجد بذلك أول نظام مراقبة «المجلس الأسود» الذي دام حتى قيام الثورة مما جعل مركز كبير مفتشي البريد يتحول إلى مركز سياسي. وفي القرن الثالث عشر أسند في اغلب الأحيان إلى الوزير الأول.

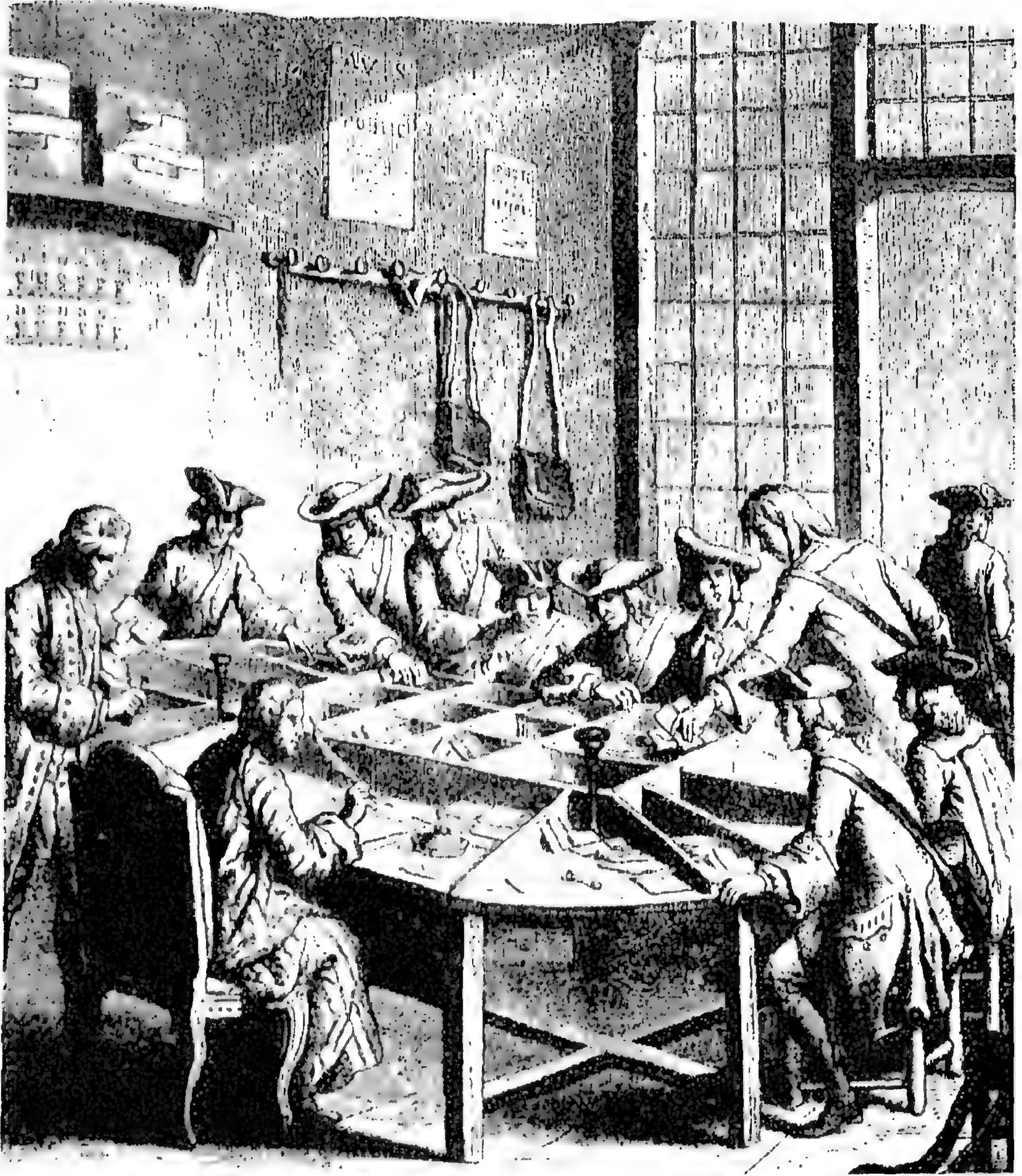
ووجـدت أيضـاً الخـدمات الخـاصة لأن الدولة لا تملك وسائل النقل. وفي ١٦٨٠ أصبح الناقل الرئيسي للبريد صاحب الامتياز الخاص بذلك ولكنه لم يستطع تطبيقه. ولزيادة الواردات قـرر اضافـة أشياء المسـافـرين وحـاجـاتهم إلى عملية نقل الرسائل.

من باريس إلى تولوز:

«الجري كالبريد»!

انتشرت هذه العبارة للتدليل على الخدمة السريعة. وبالفعل كانت العربات الخفيفة ذات العجلتين تسير بسرعة. كانت هذه العربات عالية وتستفيد من ارتفاع بلاط الطرق. أي أنها تسير في الوسط العالي للشارع. كانت تسير ليلاً نهاراً ولا تتوقف إلا لتبديل احصنتها والسماح لركابها بتناول الطعام.

كانت هذه العربات تقطع المسافة في وقت اقل مما تستغرقه العربات الملكية الثقيلة بمرة أو مرتين. وإذا اعتمدنا دليل المسافر الفرنسي الصادر عام ١٧٧٠ فـإن العربـات البريـدية



داخل احد مكاتب البريد المصغر الذي اقامه «شاموسيه» عام ١٧٦٠ وتمثل عملية فرز الرسائل في علب مختلفة واسطة السعاة وباشراف رئيسهم

الملكية كانت تلزمها ثمانية أيام وخمس عشرة محطة للذهاب من باريس إلى تولوز (من الاربعاء صباحاً إلى الخميس من الاسبوع التالي)، بينما كانت رحلة العربات الخاصة تستغرق أربعة أيام فقط. وقد أظهر الدوق سان - سيمون اعجابه بوسيلة النقل هذه عندما استعملها للذهاب إلى اسبانيا كسفير عام ١٧٢١. وفي القرن الثاني عشر اخترع «كرسي البريد» ذو الأربعة مقاعد والذي يسير بطيئاً... ويكلف غالياً.

ولم يكن يكفي تنظيم عملية ارسال البريد إلى المناطق. ففي مدينة كبرى كباريس يجب الاهتمام بعملية نقل الرسائل إلى داخل المدينة. وهكذا انشىء عام ١٦٥٣ «البريد المصغر».

كان ساعي المناطق يسلم الرسالة إلى أحد المكاتب الداخلية الذي يقوم بتسليمها لصاحبها



ساعي بريد من القرن الثامن عشر ينادي مواطنا لتسليمه رسالته.

مقابل رسم. ويعطي للمرسل ايصال دفع يمكن اعتباره اساس الطابع البريدي. ولكن العملية لم تنجح واختفى «البريد المصغر» من الوجود.

العلب البريدية:

لتبادل الرسائل استعملت وسيلة بسيطة جداً. ففي زوايا الطرق كان صغار القرويين يقومون بأعمال مختلفة. وبمجرد إشارة كانوا يركضون لنقل الرسائل مقابل مبلغ بسيط يدفعه المرسل ومبلغ آخر يدفعه المرسل إليه: فائدة مزدوجة.

وكانت الطريقة ملكية نوعا ما. ففي عام ١٧٥٩ كلف الملك لويس الخامس عشر السيد شاموسيه باعادة تنظيم «البريد المصغَّر». واقيمت علب بريدية في الساحات وكلف موظفون بادارتها. وكان ذلك سببا لقطع معيشة القرويين الصغار ولاغضابهم. فقاموا بوضع مواد ذات رائحة كريهة داخل هذه العلب. وقام شاموسيه بتوظيفهم في جهازه. وهكذا رضي الجميع وسادت عملية العلب البريدية برضا الجميع.

وفي بداية عهد لويس السادس عشر، قام «تورغو» بانقلاب جذري وذلك بدمج مكاتب البريد المتنقلة ومكاتب الخدمات البريدية في مؤسسة حكومية. وتحسنت طرق إيصال الرسائل. وعشية الثورة لم يعد يلزم للرسالة أكثر من ٢٤ ساعة من باريس حتى أورليانز أو «رين» أو إلى «روان».

ولكن نقل الأخبار مع راكبي الاحصنة كان يتم بسرعة اكبر. ونقدم هنا مثلاً أخيراً وثابتاً: سقط الباستيل في الرابع عشر من تموز ١٧٨٩. وفي السادس عشر منه، أي بعد أقل من ٤٨ ساعة على هذا الحدث، كتب قسيس احدى الكنائس الصغيرة في منطقة «سومور» وتبعد ٣٠٠ كلم عن باريس في سجله ما يلي:

«١٤ تموز، يوم تاريخي في فرنسا وقد تكون باريس بأكملها قد دمرت. ولكن الاحتياطات الحكيمة التي اتخذها الفرنسيون اجهضت كل المؤمرات وذلك باستيلائهم على مخابىء الأسلحة والانفاليد والباستيل».

وهكذا نرى ان هذا الحدث التاريخي عرف في قرية تبعد ٧٥ مركزاً عن العاصمة في أقل من ٤٨ ساعة. وهذه السرعة في نقل الاخبار تفسر أسباب «الخوف الكبير». وهي ضجة انتشرت في فرنسا كلها تعلن أن فرقاً اجنبية تستعد لمهاجمة البلاد لاعادة الاوضاع إلى نصابها.

تلغراف شابيه:

في بداية أيلول عام ١٧٩٢ لم يفاجأ سكان قرية «بيلفيل» عندما شاهدوا عمالاً كثيرين يدخلون قصر «مانيلمونتان» ويبدأون بتركيب آلة غريبة على قمته المرتفعة فوق تلة باريسية ترتفع ١٢٨ متراً.

هؤلاء القرويون كانوا يجهلون انه منذ ستة أشهر، في الثاني والعشرين من آذار، أجازت الجمعية القانونية لمهندس وفيزيائي يدعى «كلود شابيه» باجراء التجارب على اختراعه الجديد «تاشيغراف» والذي سمي في ما بعد التلغراف.

ماذا يقدم هذا الاختراع من جديد؟



تلغراف شابيه. قطعة طولها أربعة أمتار مقامة على قمة أحد الابراج تدور فوق عامود. وفي نهاية كل واحدة من زواياها قطعة طولها متر تستطيع الاتجاه كيفما يراد لها وحسب اصطلاحات محددة سلفاً.
وقد استعمل للمرة الأولى في ١٢ تموز ١٧٩٣.

الفكرة ليست جديدة. فبعض شعوب ما قبل التاريخ فكرت بارسال أنبائها بواسطة الاشارات واختراع «كلود شابيه» هو انه استفاد من عملية التقدم في حقل العلوم الفلكية لتحقيق فكرته، بفضل ذراع متحركة مقامة فوق برج تستطيع إرسال ثمان وتسعين اشارة يتم دمجها لتؤلف جملاً كافية للحاجات العادية. وهذا ما كان يريد «شابيه» اختباره. ولكن دهشة سكان «بيلفيل» كبرت وانقلبت إلى حذر عندما شاهدوا هذه الذراع تتحرك. فلقد اعتقدوا انها رسائل موجهة إلى العائلة الملكية السجينة في المعبد. وكمواطنين مخلصين انقضوا على هذه الآلة ودمروها ولم يستطع «كلود شابيه» النجاة إلا بفضل هروبه.

واعاد المهندس تجربته في تموز ١٧٩٣ مسلحاً هذه المرة بكل الاجازات القانونية اللازمة. فاقام نقطة اتصال في «ايكوان» على بعد ١٣ كلم ونقطة اخرى في سان – مارتين دي تيرتر على بعد عشرة كلم. وكانت النتائج رائعة.

نال «شابيه» من الجمعية العمومية لقب مهندس تلغراف. وحصل على المعونات اللازمة لاقامة أول خط تلغرافي بين ليل وباريس. وافتتح هذا الخط في عام ١٧٩٤ وأول تلغراف ارسل إلى الجمعية العمومية ابلغها باستعادة مقاطعة «كوندي سورليسكو» من النمساويين الذين طردوا منها.

وقد اقيم مكتب تلغراف باريس – ليل فوق تلة «مونمارتر». وشارع «التلغراف» في باريس يذكرنا بذلك.

وشيئاً فشيئاً انتشرت الخطوط التلغرافية الشبيهة بتلك التي اخترعها «شابيه» في كل انحاء فرنسا. ولم يعد يلزم سوى ساعات لارسال الاخبار بين باريس ومارسيليا وتولوز وبوردو.

وبدأت حقبة جديدة في تاريخ نقل الأخبار.

■

المرجع:

Historia No. 386. 1979.



كتب وردتنا



بحوث في مؤخّرة القوات المسلّحة "كتاب عسكري جديد"

للعميد الركن محمد خالد شيخ القصّابين

عرض هاني خليل

قبل كلّ شيء لابدّ هنا من التنويه إلى أن أهميّة هذه البحوث التي تناولت صنفا مهمّا جدّا من صنوف التأمين القتالي-العسكري في حالتي السلم والحرب تنبع من:

أولاً: الحاجة العسكرية القطرية والعربية إليها.

ثانياً: من كونها كتبت بقلم ضابط إداري لامع له من الخبرة والمعرفة العسكرية عموما، والادارية خصوصاً الباع الكبير، بالإضافة إلى دراساته القيّمة التي طالعناها له في مجلّات عسكرية معروفة (كالفكر العسكري) و(المهندس الطليعي) وغيرهما..

ثالثاً: لأنها، وكما كتب السيد العماد مصطفى طلاس في تقديمه للكتاب تعبّر عن بداية تحول نوعي في مفاهيم ومعلومات ومعارف الضابط العربي عامة (والسوري خاصّة)، هذا التحوّل الذي يعني ولوج الضابط إلى ميدان البحث العلمي العسكري ممّا يخدم جدلية التفاعل بين العلوم العسكرية والمدنية.



في المقدّمة يفرّق المؤلفّ بين مفهوم الشؤون الادارية العسكرية الذي ارتبط منذ ظهوره بالجيش وبين مفهوم مؤخرة القوّات المسلّحة الحديث العهد، والذي يقوم على أساس ردم الهوّة بين الاقتصادين المدني والعسكري، لا بل أكثر من هذا على تسخير الاقتصاد المدني السلمي للأهداف الحربية العسكرية، وهو أمر يجب ألّا يتمّ في فترات الحرب فقط بل وفي فترات السلم، وهو ما يعني بتعبير آخر ضرورة تنسيق علاقات العمل والانتاج بين المؤسسات العسكرية والمدنية على أسس علمية اقتصادية تأخذ باعتبارها في كلّ مرّة كافة الشروط والظروف الذاتية والموضوعية لتطوّر المجتمع المدروس. وهو لهنا يضعنا كعسكريين ومدنيّين أمام موضوع شيّق جدّاً، إذ يزيل عمليا الفاصل بين الجهد الذي يجب أن يبذل من أجل بناء القدرة العسكرية الدفاعية للجيش، وبالتالي نجاح أعماله القتالية وبين تطوير الاقتصاد الوطني ليكون في خدمة الدفاع عن الوطن والقضية باعتبار أنّه لا نصر يمكن أن يتحقق بدون وجود قاعدة مادّية وإمكانات تنظيمية وعلاقات ميدانية

صحيحة بين مؤخرة الجيش كتشكيل عسكري والهيكل الاداري للدولة كلّها.

• * في الفصل الأول يستعرض المؤلّف تاريخ تطوّر المؤخّرات حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، حيث يعرج هنا بموضوعية وتحليل علمي مدروس على الضرورات السياسية والاجتماعية والادارية – العمليّاتية التي حتمت إعادة النظر في مشكلات الشؤون الادارية العامة كالإمداد والنقل وتأمين المهام المختلفة للجيش، وهذا هو بالضبط ما يفسر الانتقال من نظام الامداد التسويقي إلى نظام مستودعات التخزين ثمّ الامداد المركزي للقوّات حسب مستويات التشكيلات.. وأخيرا الانتقال إلى أسلوب الوحدات الادارية في داخل التشكيلات المقاتلة بما فيها مؤخّرة الجبهة العملياتية نفسها، ممّا دفع بدوره إلى ظهور نظام التأمين الاداري للجيش والقوّات المسلّحة، بحيث وضعت الخطوط العريضة لقيادة أعمال المؤخّرات وتنسيق كافة أنواع الامدادات وأعمال الطبابة والصيانة وغيرها.

يقول مؤلف الكتاب العميد محمد خالد شيخ القصّابين في معرض هذا أنّ اتساع احتياجات القوّات الذي جرى في كافة الجيوش المتحاربة أجبر قيادات الجيوش على تغيير التأمين الاداري، وإلى زيادة إعداد قطعات المؤخّرة ومؤسساتها ووحداتها، وإلى تحسين تجهيزها الفنّي والطبّي، كما أنّ ظهور اختصاصات جديدة للمؤخرة تطلّب بدوره إيجاد عناصر مؤخّرة جديدة (ص/١٩/).

* وفي الفصل الثاني يحدّثنا المؤلّف عن صورة وحالة المؤخّرات حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث يؤكّد على الطبيعة المتميّزة هنا لهذه الصورة نظراً لحجم المتغيّرات العسكرية والاجتماعية والسياسية التي حدثت. فطبيعة عمل المؤخرة تميزت حقّا:

١ – باستخدام وسائط صراع جديدة أدّت إلى زيادة في معدّلات استهلاك الوسائط المادّية..

٢ – الديناميكية العالية والمناورة الرفيعة المستوى بالقوى والوسائط.

٣ – بضرورة محافظة المؤخّرات على جاهزيتها القتالية، لأنّ الأعمال القتالية قد تنشب بشكل مفاجيء وهو ما يحدث عادة.

٤ – تزايد أهمية العامل الاقتصادي، بحيث أصبح هو العنصر الحاسم في فترات ما بعد الحرب، وباعتبار المؤخّرة هي أداة تنظيم واستثمار هذا العامل، فهي اذن ذات دور حاسم في المعركة.

٥ – تغيّرت مسافات وأبعاد وحجوم ومهام عمل المؤخّرة تغيّرا ملحوظاً.

ويستعرض الكاتب هنا بموضوعية وعلمية أوضاع مؤخرات كلّ من الجيوش الألمانية والفرنسية والانكليزية والأمريكية والروسية التي اشتركت في الحرب العالمية الثانية، حيث يتعرّض باقتضاب لبنيتها التنظيمية وديناميكية عملها العسكري وكيفية تنفيذها للمهام التي أسندت لها، وسبب فشلها أو نجاحها.

إلّا أنّه يؤكد أن التنظيم الاداري السوفياتي كان هو الأفضل في الفترة اللاحقة للحرب بعد أن كان التنظيم الألماني هو الأفضل في فترة بداية الحرب.

يقول المؤلّف في (ص٢٩) أنّ البنية التي أخذتها عناصر المؤخّرة السوفياتية في الحرب العالمية الثانية سهّلت عملية إقامة صلات متينة باقتصاديات البلاد والاستخدام الصحيح للموارد المادّية المحلّية وتنفيذ مهام التأمين الاداري التي كانت معقّدة من كافة الوجوه.

بعد هذا ينتقل الكاتب إلى دراسة تطوّر المؤخرة حتى الوقت الراهن، فيرى أنّ نزعات تطوير مؤخرة القوات المسلّحة كانت تهدف الى تطوير البحث والكشف عن أشكال تنظيمية جديدة في بناء المؤخّرة وطرائق عملها في العمليّات، وإلى الادخال الواسع لوسائط مكننة العمل وادخال العقول الألكترونية في أنظمة قيادتها، أي إدخال أنظمة الأدمغة، وهذا بدوره قد أفرز نتيجة للمتغيّرات الضخمة التي طرأت على البنى الاجتماعية والاقتصادية ضرورة تشكيل مؤخّرة تؤمّن كافة المهام الملقاة على عاتقها فظهر بذلك مصطلح المؤخّرة الحديثة التي تتألّف كما يرى المؤلّف من قطعات طرق سكك حديدية، قطعات نقل بالعربات، قطعات تمديد أنابيب النفط والماء، قطعات نقل قتالي

ووحدات مختلفة هي قواعد أساطيل وسفن تأمين قواعد متحرّكة للغوّاصات وهي ترسانات وقواعد ومستودعات ممتلئة بالوسائط المادية، وهي مؤسسات فنيّة وطبّية ومؤسسات هندسية ومطارية، فنّية وقطعات ومؤسسات أخرى كثيرة غيرها. ولكن ما هو مستقبل المؤخّرة؟ ذلك هو التساؤل الذي يرى المؤلف أنه يستحوذ على اهتمام المفكّرين العسكريّين في الشرق والغرب.

* في الفصل الخاص بمعالم نظرية مؤخرة القوات المسلّحة يؤكد المؤلف مجدّداً وبصورة حاسمة على العلاقة المتينة بين التنظيم العسكري والتنظيم الاقتصادي في الدولة، وحيث يرى في محصّلة الأمر أنّ بناء المؤخرة وتحديد أنشطتها هو موضوع مؤخّرة القوّات المسلّحة التي ليست سوى مجموعة من المعارف حول مبادىء وقوانين ووظيفة أنظمة التأمين الاداري للقوات المسلّحة.

وتتضمّن نظريّة مؤخرة القوّات المسلّحة في ذاتها:

أولاً: بناء مؤخرّة القوّات المسلّحة.

ثانياً: فعاليات وأنشطة المؤخّرة في تأمين القوات والقوى البحرية والجوّية.

هنا في تحديد معالم النظرية كما يرغب الكاتب – وهو ضابط سوري معروف في الشؤون الادارية – تظهر معارفه وتوجّهاته وأفكاره مترابطة وسليمة، حيث يشرح العلاقة الهامّة بين فترتي الحرب والسلم، وضرورة الأخذ بنظرية التنبؤ لوضع كافة حسابات الامداد والتأمين في الحالات المختلفة، وهو أمر يعني بعبارة أخرى: أنّ نظام عمل المؤخّرات وتنظيمها وتوزيعها هو علم كامل يعتمد على نتائج وقوانين العلوم الأخرى وفي مقدّمتها علم الاجتماع والاقتصاد والسياسي والنفس والديموغرافيا والرياضيات والعلوم والسيبرنتيك والكيمياء والفيزياء والطب البشري والبيطري وغيرها.

ومن المهم هنا عدم الفصل بين نظرية المؤخّرة ونظرية الاقتصاد الحربي، ولكن على أساس أنّ العلم العسكري هو قاعدتها ومادتها الرئيسية ومنه تستمدّ حيويتها وديناميكيتها ومع الاحتفاظ بتماس مباشر بينها وبين نظريات الدفاع المدني من جهة وبين مختلف الأنظمة الفنّية والخاصّة من جهة أخرى.

وهنا بالضبط يؤكّد المؤلّف على العلاقة الجدلية بين عمل المؤخّرة والتنظيم العسكري كلّه، فهي إذ تستفيد من العلوم العسكرية، تقدّم لها فيما بعد نتائجها فتغنيها.

ويختتم المؤلف فصله الرابع بتعداد المبادىء الرئيسية لنظرية تنظيم التأمين الاداري لمؤخرة القوّات المسلّحة فيراها ستّة مبادىء. انظر (ص٤٤) – حيث ينتقل في الفصل الخامس الى تقديم الشروحات العلمية – العسكرية لهذه المبادىء.

* وفي الفصل السادس يؤكد المؤلف على حقيقة هامة جدّا، إذ يرى أنّ المضمون المادّي الفنّي لمؤخرة القوّات المسلّحة ذو علاقة مباشرة بالجانب الاجتماعي والاقتصادي.

وإذن هناك علاقة هامة بين شكل الحكم وعلاقات الانتاج من جهة وبين بنية ونظام عمل المؤخّرات وعلاقتها بصنوف القوّات من جهة ثانية.

إنّ أفضل ما يحتوي هذا الفصل يتلخّص في دراسة المؤلّف لجانبين جدليين في خصائص بنية وعمل مؤخرة القوّات المسلّحة وهي:

الجانب المادّي والجانب الاجتماعي، حيث يشرح علاقة هذين الجانبين ببعضهما البعض، فالاشتراك في تحقيق الانتاج الحربي يشكل انتاجا مادّيا، فتقوم مؤخرة القوّات المسلّحة بتنظيم العلاقات البضائعية المالية مع المجتمع.

وهذا يعني كما يرى المؤلّف (في ص٥٥) أنّ على مؤخّرة القوات المسلّحة في كافة مستوياتها تركيز جهودها في الاستخدام العقلاني والفعّال للقوى البشرية والموارد المادّية والمالية المتاحة، بحيث تنفّذ المهام بأقصى فعالية وبأقلّ النفقات.

* ويعتبر الفصل السابع فصلا هامّا جدّا، نظرا لأنّه يعالج مسألة في غاية الدقة والخطورة وهي مسألة التحليل العسكري – الاقتصادي الذي تراوحت المواقف منه بين ثلاثة:

الأول: يرى أن يكون لهذا التحليل قوانينه ومبادئه التي تجعل منه علما مستقلاً.

الثاني: يرى أن يكون هذا التحليل سائدا في فترات الحرب فقط.

الثالث: يرى أن يكون امتدادا لعلم الاقتصاد.

ومهما اختلفت هذه المواقف وتباينت، فانّ التحليل العسكري – الاقتصادي كما يرى المؤلّف هو تعديل خاص للنظرية العامة للتحليل الاقتصادي، بسبب الحاجة إلى قيادة الصرح العسكري – الاقتصادي في كافة المستويات، فهو يؤمّن لنا المعلومات اللازمة لاعداد السياسة العسكرية والاقتصادية بصورة علمية، والتوجيهات الصحيحة لأفضل أنواع استخدام الوسائط الدفاعية والبحث عن الاحتياطات في الاقتصاد الحربي، وهو يعطي مادّة لنظريات الاقتصاد الحربي التي كانت وستبقى حقلا خاصّا من حقول المعرفة العلمية.

ويرى العميد الركن مؤلفّ الكتاب أنّ التحليل العسكري – الاقتصادي يؤمّن للعمل العسكري ولنظريّات الاقتصاد الحربي الموارد الاقتصادية المعمّمة والمطابقة مطابقة مثالية للموارد المادية والبشرية اللازمة لمعرفة أكثر عمقا لقوانين الصراع المسلّح ولتقدير المتطلّبات المادّية للحرب والتنبّؤ بها عند صياغة العلم العسكري لتنفيذ الأعمال القتالية الحديثة وكذلك حسابات الامكانات الحقيقية التي تسدّ الحاجات المثالية في الظروف التاريخية الاجتماعية الاقتصادية الحقيقية القصوى أو الدنيا.

وعندما يسقط المؤلّف هذه المعلومات والمعارف على الموقف العربي – الاسرائيلي ينبّه إلى أنّه فيما لو وقعت حرب خامسة بيننا وبين اسرائيل فانّ التحليل العسكري – الاقتصادي يجب أن يشمل كلّا من:

١ – الاقتصاد الوطني للدول العربية.

٢ – الاقتصاد الوطني للعدو الاسرائيلي.

٣ – تأمين مقابلة نتائج التحليل.

ويقدّم المؤلّف عرضا شيّقا لمسألة تصنيف أنواع التحليل العسكري – الاقتصادي التي يلخّصها في أربعة: (عمليّاتي – جاري – مستقبلي – ونظري)، بحيث تجمع بينها جميعها طرائق ومناهج اقتصادية ورياضية أو بحثية أو احصائية.

* أما الفصل الثامن من الكتاب فيتضمّن شرحا مفصّلا تاريخيّا وحضاريّا للضرورة الموضوعية للدفاع المدني ولأهميّة تنسيق العمل بين وحداته ،ووحدات القوّات المسلّحة، وبالتالي للفاعلية التي يمكن بها ترميم الاقتصاد المخرّب في زمن الحرب واستعادته وتطويره ووضعه مجدّدا في خدمة القدرة الدفاعية عن البلاد.

وقد لجأ الكاتب في هذا الفصل إلى وضع خبرة الاتحاد السوفياتي بين يدي القارئ، ولكنّه لم يقدّم خبرات أخرى – وخاصّة عربية – وهي مسألة كانت تحتاج الى مثل هذا الطرح.

* ويتميز الفصل التاسع عن غيره بأهمّيته العسكرية التكتيكية – العمليّاتية البحتة، إذ أنّه سيتناول حالة هامةّ جدّاً هي القيام بخرق دفاع العدو القوي، حيث يشرح بالتفصيل كيفية تحضير المؤخرة لتنفيذ هذه العملية ومهامها أثناء الخرق والعوامل التي تحدّد قوام مؤخرّة الجيش وهي عوامل يلخّصها بـ:

– إمكانات الدولة من الناحية الاقتصادية..

– القوام القتالي للجيش..

– شروط خوض العملية القتالية..

– شروط مسرح الأعمال الحربية وخاصة الجغرافية في نطاق الجيش.

وينتقل بعد هذا إلى شرح طريقة وبنية التأمين المادي والطبي والفني والتمويني – الامدادي للوحدات المحاربة في حالة الهجوم والخرق، وتدابير حماية وحدات المؤخرة والدفاع عنها باعتبارها مستهدفة من قبل العدو.

* ويتابع المؤلّف في الفصل العاشر ما بدأه في الفصل التاسع، حيث يتحدّث عن التأمين الاداري في الهجوم الصحراوي، ثمّ الدفاع المعادي والممكن ضمن نظرية مؤخرة القوّات المسلّحة باعتبار الخصائص الصعبة للعمل في الظروف الصحراوية وتعدّد الاتّجاهات، وبالتالي ضرورة تشكيل مؤخرات لكلّ اتّجاه

بالاضافة الى ضرورة تنسيق عمل المؤخرة، خاصّة فيما يتعلق بالامداد بالوقود والمياه.

وهو يدفع هنا بالمسؤولين الى ضرورة تقديم الدراسات لمعرفة مخزونات الأرض من المياه وخاصة في المناطق الصحراوية وتوزيع خرائط منابع مصادر المياه على كافة التشكيلات لتكون على معرفة تامّة بها.. ولكن ماذا عن دور الشؤون الادارية في مجال الجاهزية القتالية، هذا بالضبط التساؤل الذي يجيب عليه العميد الركن مؤلّف الكتاب في الفصل الحادي عشر، إذ يرى أنّ المهمّة الرئيسية التي يؤديها الاداريّون مع غيرهم من أفراد القوّات المسلّحة هامة جداً، كما أن تسود اليوم في علم المؤخّرة قاعدة رئيسية تقول أن زيادة احتياطات الوسائط المادّية وتنسّقها وحراستها بصورة جيّدة تعتبر الأساس الذي تقوم عليه الجاهزية القتالية للقوات واستغلاليتها وحيويتها من الناحية الادارية.

ولهذا يرى المؤلّف أنّه لابدّ من أن يتحلى ضبّاط الشؤون الادارية بمعرفة اقتصادية وعلمية وسياسية جيّدة بالاضافة الى المعرفة العسكرية الخاصّة بكيفية المحافظة على الجاهزية القتالية للقوّات.. ويختم المؤلّف اجابته على هذا التساؤل فيقول (ص٩٨) أنّ الاقتصاد في النفقات وفي استهلاك الوسائط المعادية في القطعات والعمل على تنفيذ المهام المسندة في حينها من قبل قطعات ووحدات المؤخرة وبثّ روح الانضباط والطاعة في صفوف العاملين في المؤخرة يرفع مستوى الجاهزية القتالية للقطعات، ومن هنا تظهر أهميّة الشؤون الادارية والدور الذي تلعبه في الجاهزية القتالية في السلم والحرب على حدّ سواء.

ضمن هذه الأسطر والأفكار، تتجلى الأهمّية العسكرية والعلمية لكتاب «بحوث في مؤخرة القوّات المسلّحة» الذي سدّ فراغا كبيراً في مكتبتنا الوطنية العسكرية.

■





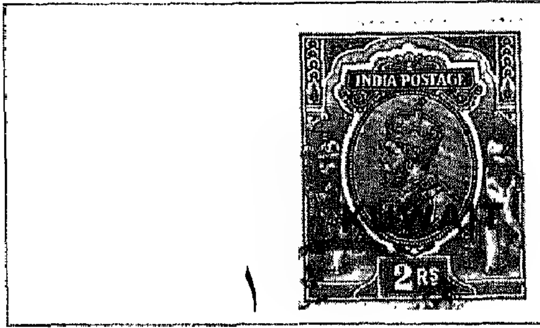
تاريخ طوابع الخليج العربي

ميشال اسطفان

إن المكاتب البريدية في امارات الخليج العربي، بالوقت الذي كانت تلك الأمارات مستقلة داخليا، كانت تحت إدارة البريد الهندي أولا، ثم تحولت الى ادارة البريد البريطاني. وكانت تستعمل الطوابع الهندية للبريد العادي والحكومي بدون توشيح إلى أن صدرت لكل امارة مجموعات هندية موشحة باسم الامارة وبعملتها المحلية الهندية، ما عدا امارة دبي وأبو ظبي ومسقط وعُمان وأم سعيد وجزيرة داس التي استعملت تلك الطوابع أيضا، موشحة بالعملة المحلية الهندية، انما بدون ذكر إسم البلد.

ولنبدأ بالحديث عن طوابع الكويت:

إفتتح بريد الكويت أعماله في شهر كانون الثاني/يناير سنة ١٩١٥ بادارة البريد الهندي في بادىء الأمر، وكان يستعمل الطوابع الهندية كما ذكرنا، إلى أن صدرت أول مجموعة في أول نيسان/أبريل سنة ١٩٢٣ ، مؤلفة من ١٥ طابعا من ١/٢ آنة الى ١٠ روبيات موشحة (Kuwait) على طوابع الملك جورج الخامس الصادرة للبريد الهندي (صورة ١) قيمتها اليوم ١٤٠ جنيها استرلينيا. وقد ظهر طابع فئة ١/٢ آنة بتوشيح مكرر وظهر أيضا زوج عمودي من طابعين من الفئة ذاتها، أحدهما موشح والآخر بدون توشيح وهذه الأخطاء أصبحت نادرة جدا. وظهر طابع فئة ٣ آنة باللون البني المحمر



١

بتوشيح مقلوب، قيمته اليوم ٢٥ جنيها استرلينيا. وصدر بالتاريخ ذاته، مجموعة للبريد الحكومي من ١٤ طابعا من ١/٢ آنة الى ١٥ روبية موشحة بسطرين [Kuwait Service] على طوابع الملك جورج الخامس للبريد الهندي كذلك، قيمتها اليوم ٧٠ جنيها استرلينيا.

وهناك مجموعة للبريد العادي وأخرى للبريد الحكومي كانت قد جهزت لبريد الكويت من الطوابع الهندية موشحة [Koweit] بدلاً من [Kuwait] وكانت محفوظة لدى وكالة المعتمد البريطاني، ولكنها لم تصدر رسميا بل تسرَّب منها عدد من المجموعات الى السوق التجارية، وتساوي المجموعة اليوم نحو من ٧٠٠٠ جنيه استرليني. ويجدر بالذكر هنا، أن الختم الذي كان مستعملا في الكويت لغاية سنة ١٩٢٠، كان هكذا Koweit .

وفي سنة ١٩٢٩، صدرت مجموعة مؤلفة من ٢٠ طابعا: من ١/٢ آنة الى ١٥ روبية موشحة]Kuwait[على طوابع الملك جورج

الخامس للبريد الهندي بأحرف أكبر وأنحف من الأولى، قيمتها اليوم ٣٥٠ جنيها استرلينيا. وفي التاريخ نفسه صدرت مجموعة للبريد الحكومي مؤلفة من ١٠ طوابع من آنة واحدة إلى ١٥ روبية، موشحة بالتوشيح ذاته من المجموعة الحكومية الأولى لكن ترتيب الحروف في كلمات التوشيح، متباعدة عن بعضها أكثر من الطبعة الأولى، وأصبحت قيمة هذه المجموعة ٦٥ جنيها استرلينيا.

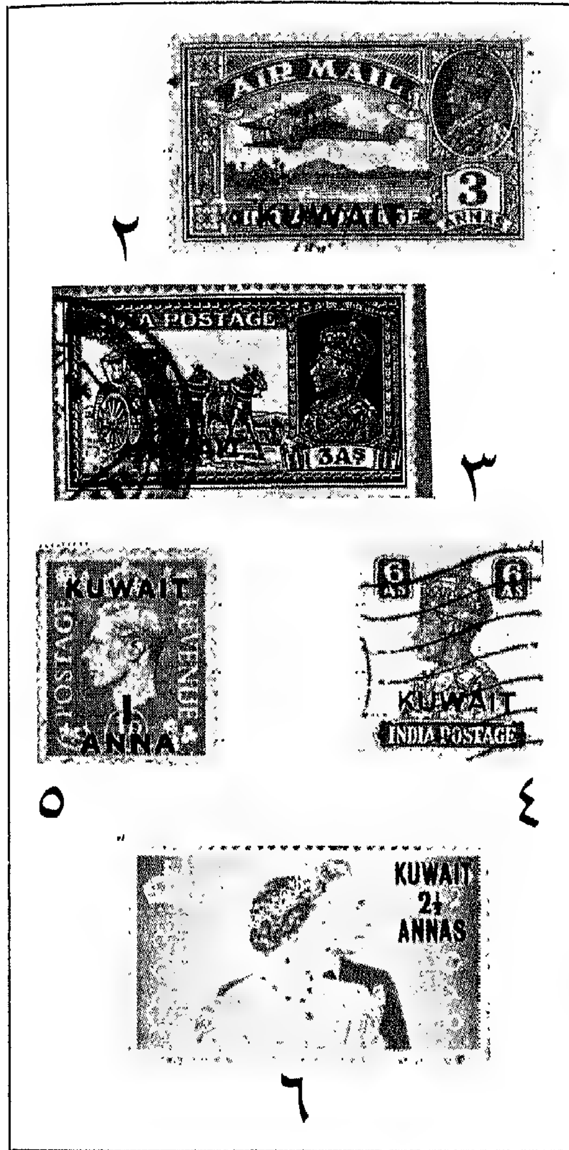
وفي شباط/فبراير سنة ١٩٣٣ صدرت مجموعة للبريد الجوي مؤلفة من ٤ طوابع فئة ٢، ٣، ٤، و٦ آنات موشحة «الكويت» وبالافرنجي أيضا، على طوابع هندية للبريد الجوي (صورة ٢). قيمتها اليوم ١٠٠ جنيه استرليني ويزيد، وحدث ان ظهر طابع فئة ٣ آنة بطباعة مكررة وأصبحت قيمته عالية جداً.

وفي سنة ١٩٣٩ - ظهرت مجموعة موشحة على طوابع الملك جورج السادس للبريد الهندي (صورة نموذج منها ٣)، مؤلفة من ١٣ طابعا فئة ١/٢ آنة الى ١٥ روبية، قيمتها اليوم ٥٥ جنيها استرلينيا، وهناك طوابع فئة ١٠ روبيات ظهر بتوشيح مكرر قيمته اليوم ١٠٠ جنيه استرليني.

وأخيراً صدرت مجموعة سنة ١٩٤٥ للملك جورج السادس للبريد الهندي (صورة نموذج منها ٤)، مؤلفة من ١٣ طابعا من فئة ٣ الى فئة ١٤ آنة قيمتها اليوم ١٠ جنيهات استرلينية.

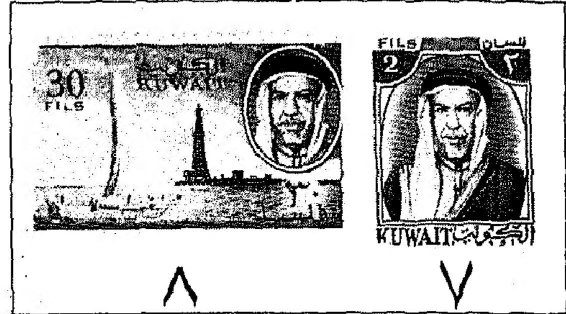
وبتاريخ أول نيسان/أبريل سنة ١٩٤٨ ولغاية ٣١ كانون الثاني سنة ١٩٥٩ انتقلت إدارة البريد الكويتي إلى الادارة البريدية البريطانية وأصبحت الطوابع المستعملة في الكويت توشح على المجموعات الانكليزية وتُسعَّر بالعملة المحلية الهندية كالسابق.

وفي أول نيسان/أبريل سنة ١٩٤٨ صدرت مجموعة الملك جورج السادس الانكليزية (صورة ٥) المؤلفة من ١١ طابعا موشحة من ١/٢ آنة إلى ١٠ روبيات، قيمتها اليوم ١٥ جنيها استرلينيا، وظهر طابع من فئة ٣ آنات بتوشيح مكرر، مرة بتوشيح ظاهر كالعادة ومرة أخرى بتوشيح مضغوط فقط وليس ظاهراً، قيمته اليوم ١٠٠٠جنيه استرليني.



وبمناسبة اليوبيل الفضي للزواج الملكي (الملك جورج السادس) سنة ١٩٤٨ أصدر البريد البريطاني طابعين لكل مستعمرة ومحمية بريطانية، ومن جملتها امارة الكويت التي صدرت لها مجموعة من طابعين فئة ٢ ١/٢ آنة و١٥ روبية موشحة على المجموعة البريطانية للمناسبة المذكورة فئة ٢١/٢ بنس وجنيه استرليني واحد. قيمة هذه المجموعة الكويتية اليوم ٢٥ جنيها استرلينيا، (صورة ٦).

وفي السنة ذاتها صدرت مجموعة من ٤ طوابع ٢١/٢، ٣، ٦، آنة وروبية واحدة لمناسبة الألعاب الأولمبية العالمية، موشحة على المجموعة الصادرة للمناسبة ذاتها في بريطانيا.



٨ ٧

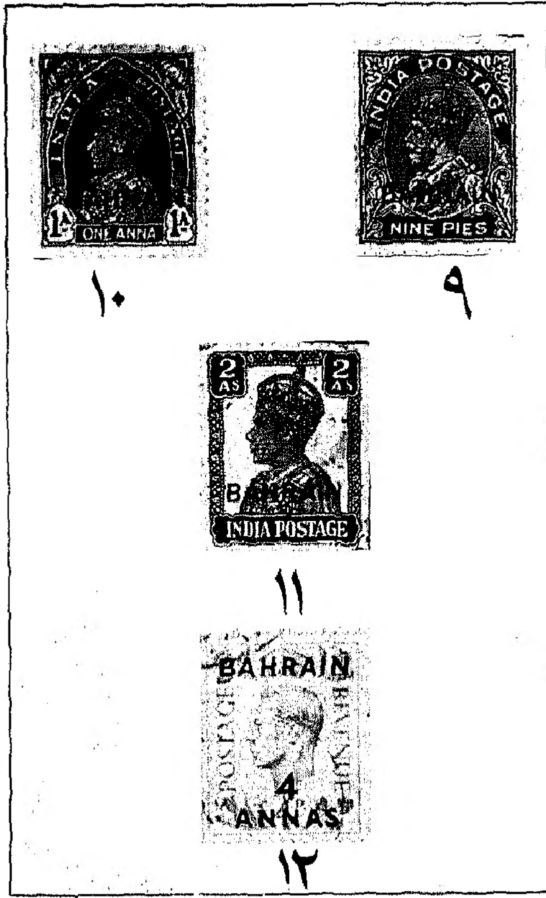
وفي ١٠ تشرين الأول/اكتوبر سنة ١٩٤٩، صدرت مجموعة من ٤ طوابع لمناسبة الذكرى ٧٥ لتأسيس اتحاد البريد العالمي، موشحة على المجموعة الخاصة بالمناسبة والتي أصدرتها بريطانيا.

ودرجت الحال على هذا المنوال لغاية ٣١ كانون الثاني/يناير سنة ١٩٥٩، تاريخ إقفال الوكالة البريطانية للبريد، في عهد الملكة اليزابيت الحالية فتسلمت الحكومة الكويتية مسؤولياتها وأصدرت أول مجموعة تحمل صورة الشيخ عبد الله السالم الصباح وكانت لا تزال بالعملة الهندية النيابيزة الجديدة، تلتها سنة ١٩٦٠ مجموعة من الطوابع للذكرى العاشرة لحكم الشيخ الصباح.

وفي سنة ١٩٦١، صدرت مجموعة موسعة من ١٨ طابعا مبتدأة بستة طوابع تحمل صورة الشيخ الصباح و١٢ طابعا تحمل صورا عن مختلف مرافق البلاد الاقتصادية (صورة ٧ و٨) وبالعملة المحلية الجديدة بالقلس والدينار الكويتي. ثم تبعتها المجموعات العادية وللبريد الحكومي والجوي وللأجور المستحقة، والتذكارية للمناسبات الوطنية والعالمية المختلفة أسوة بباقي البلاد العربية.

تاريخ طوابع البحرين:

إفتتح مكتب بريد البحرين أعماله في أول آب/أغسطس سنة ١٨٨٤ بادارة البريد الهندي وكان يستعمل الطوابع الهندية للبريد العادي والحكومي بدون أدنى توشيح في بادىء الأمر، ثم أصبح يوشح تلك الطوابع الهندية بكلمة [Bahrain] واصدر أول مجموعة في ١٠ آب/أغسطس سنة ١٩٣٣، موشحة «بحرين»



١٠ ٩

١١

١٢

بالإفرنجي على مجموعة الملك جورج الخامس (صورة ٩)، من فئة ٣ بيزة الى ٥ روبيات، قيمتها اليوم ٥٧ جنيها استرلينيا.

وفي سنة ١٩٣٤ صدرت مجموعة صغيرة من ١/٢ آنة الى ٤ آنات موشحة على طوابع الملك جورج الخامس أيضا، وقيمتها اليوم ١٠ جنيهات استرلينية.

وفي سنة ١٩٣٨ صدرت مجموعة موشحة «بحرين» بالافرنجي على طوابع الملك جورج السادس (صورة ١٠)،من فئة ٣ بيزة إلى ٢٥ روبية أصبح قيمتها اليوم ١٢٠ جنيها استرلينيا.

وفي سنة ١٩٤٢ صدرت مجموعة موشحة «بحرين» بالافرنجي على طوابع الملك جورج السادس (صورة ١١) من فئة ٣ باي إلى ١٢ آنة.

وفي أول نيسان/أبريل سنة ١٩٤٨ انتقلت أعمال البريد الى الادارة البريدية البريطانية وأصدرت أول مجموعة موشحة «بحرين» بالافرنجي وبالعملة الهندية الآنة والروبية على طوابع الملك جورج السادس

الانكليزية (صورة ١٢) وكانت ١١ طابعا من فئة ١/٢ آنة الى ١٠ روبيات، قيمتها اليوم ٤٠ جنيها استرلينيا.

وكما كانت الحال مع الكويت بخصوص الطوابع التذكارية المرتبطة بالمناسبات الانكليزية، فقد صدرت ثلاث مجموعات تذكارية ما بين ٢٦ نيسان/أبريل ١٩٤٨ و١٠ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٤٩ لمناسبة اليوبيل الفضي لزواج الملك، والثانية لمناسبة الألعاب الأولمبية العالمية والأخيرة لمناسبة الذكرى ٧٥ لاتحاد البريد العالي، ويجدر الذكر أن مجموعة اليوبيل الفضي أصبح قيمتها ٣٠ جنيها استرلينيا، والأهم هو طابع فئة ٢ ١/٢ آنة للالعاب الأولمبية ظهر بتوشيح مكرر قيمته اليوم ١٠٠ جنيه استرليني، ولم يشاهد سوى طابع واحد مستعملا في بريد المُحرّق بتاريخ ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨ قيمته اليوم ٢٠٠ جنيه استرليني. أما آخر مجموعة للملك جورج السادس الموشحة للبحرين، فقد صدرت في سنة ١٩٥٠ مؤلفة من ٩ طوابع: ١/٢ آنة الى ١٠ روبيات، وقد حدثت أخطاء بفئة ٢ روبية من تباعُد مختلف بين حروف التوشيح أو عدم انتظامها مما جعلها نادرة جداً.

وفي سنة ١٩٥٢ صدرت مجموعة عادية موشحة على طوابع الملكة اليزابيت من فئة ١/٢ آنة الى روبية واحدة، وهنا أيضا حدث بفئة ١/٢ آنة أنَّ الكُسر ١/٢ لم يظهر بالطباعة على بعض منها مما جعل سعرها اليوم ٤٠ جنيها استرلينيا.

وسنُتبع الحديث عن بقية طوابع البحرين وما يتبعها في العدد اللاحق. ■



في العدد المقبل



المدنية الفينيقية

.. من مقابر جبيل



المقاومة السرّية أروع مغامرات التجسّس في جبل طارق

